عمر لطفي النجار

القرآن وطبيعة الأساطير

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ مقدمة:

إن وجود الأنبياء في التاريخ البشري، من لدن آدم، إلى أنبياء الأمم جميعاً، كانت مهامهم محصورة في ثلاث أغراض رئيسية: الإصلاح العقائدي من خلال الإعتقاد بالتوحيد، الإصلاح المعرفي من خلال الإستخدام الصحيح للعقل، الإصلاح الإجتماعي من خلال المساواة بين البشر وصولاً لإيجاد العمل الصالح عن طريق الإعتقاد باليوم الآخر ، وكل هذه الأغراض على قيمة عالية أمام الإنسان، ولكن الكهنة أصحاب المعابد والأساطير, سواء كانوا ملوكاً أو من أعوان الملوك، وتبعاً لأغراضهم كانوا بمثابة السجن العظيم والجلاد الجبار لشعوبهم، و لا عجب أن استمر بقاءهم على مدار التاريخ وما قبل التاريخ، ولا عجب أيضاً في استهلاكهم للنبوات، التي أصبحت كبؤر صغيرة قد تُرى وقد لا تُرى، حتى اليهودية والمسيحية عجزتا عن التحرر من وجودهم وسطوتهم بشكل مطلق، والإسلام هو الوحيد الذي كان له هذا التحرر، ومن حيث وجوده على قمة الحضارات أو آخر النبوات، كان دوره الأساسي هو اصلاح كل ما كان قبله من عقائد وأديان.

إن البحث في طبيعة الأساطير والفكر البدائي، بحث ممتع جداً، ففيه نتعرف على ما كان عليه أسلافنا، في عقائدهم، واستخدام عقولهم،

وأخلاقهم، كما فيه كل العبرة للمآل المحزن الذي وصل إليه البشر لما اخترعوا عقائدهم بأيديهم وأهوائهم، لما اتخذوا خيالهم بديلاً عن عقولهم، لما جعلوا قيمة الإنسان وكرامته كأدنى قيمة وجدت على الأرض.

قصص الأنبياء ذُكرت في القرآن، ولكل قصة ثوابتها الموضوعية، وبهذه الثوابت أصبحنا قادرين على قراءة الأساطير، قراءة تقويمية، وأغلب الأساطير خاصة ما تحدث منها عن اليوم الآخر والخلق وبداية البشر وغير ذلك، هذا كله وبالأصل عن الأنبياء، ولكن بعد أن تشوهت تعاليمهم بفعل التذكر المشوَّه، أو لمضاهأتهم والنسج على منوالهم، والمؤسف حقاً أن كثيراً من أصحاب الأهواء يجعلون من الأساطير أساساً للأديان السماوية، لا عن حجة وبرهان إلا باتخاذهم الشبه او التشابه، الذي هو السمة الأهم في انزلاق الفكر البدائي نحو الخيال والظنون.

إن الأساطير بما حوته من سمات ومبادئ وأغراض، تعتبر المختصر والموجز لكل حضارات ما قبل الأديان السماوية، فليس من عنصر قامت عليه تلك الحضارات إلا وقد ضمته الأساطير إلى بنيتها الداخلية، وبقرائتها وتحليل مضمونها أصبحنا قادرين على التعرف إلى ما صار لنا من نعمة بانتصار النبوة وإلى الأبد على الكهانة نواة ما كان من حضارات.

- البدائية وحضارة آدم:

البدائية المعاصرة موضوع الأنثروبولوجيا، أما مخلفات الإنسان القديم وما حوته المدافن والكهوف في التاريخ وما قبل التاريخ فهي من اختصاص علم الآثار، كل ذلك لتحديد البدايات، بما في ذلك الإنسان الأول، وهناك كما أرى المنهج الخبري، ورغم أنه مما يخص الإيمان، فإني لا أراه بعيداً عما يخص هذه المسألة، ومن قصة آدم مثلاً نستطيع إيجاد المستقيمات التي لها تحديد موضوع البحث وإطاره بعيداً عن الضياع في المتاهات اللامعقولة التي تم بناؤها على ظن لا يسمن ولا يغني من جوع، وهنا تكمن النظرة الإسلامية لقواعد هذا الفرع من العلوم.

- بداية الإنسان وخلق آدم: آدم حسب الخبر أول البشر، " و**بدأ خلق الإنسان من طين** "[1]، فالتحديد القرآني لبداية البشر ليس من التاريخ ولا مما قبل التاريخ، بل هو قبل أن وجد التاريخ وما قبل التاريخ، " **هو الذي خلقكم من طين** "[2]، " و**لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** "[3]، " **إنا خلقناكم من طين لازب** " [4]، وحتى لا يكون التمييز بين لفظتي البشر وآدم

[1] - سجدة: ٧
[2] - الأنعام: ٢
[3] - المؤمنون: ١٢
[4] - الصافات: ١١

أو بني آدم قال تعالى: " **إني خالق بشراً من طين** "[١]، " **إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون** "[٢]. وبالنتيجة: ليس من تطور للإنسان حسب القرآن عن القرد أو سواه، ومذ خلق الله آدم ونحن على صورته " و**لقد خلقناكم ثم صورناكم** "[٣] على صيغة الجمع " **فسواك فعدلك** "[٤] على صيغة المفرد، فمذ وجد آدم وهو على اعتدال قامته وعلى " أحسن تقويم "، وبهذا تميز عن الحيوانات التي تمشي على أربع أو تزحف على بطنها وإلى ما هنالك. ولبيان أن الإنسان عن الطين كشاهد وقع في التاريخ، ولبيان أن الحيوانات التي منها الطيور هي الأخرى من نفس المادة كانت معجزة عيسى عليه السلام: " **إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله** "[٥]، بل ووجود عيسى نفسه شاهد على هذا الباب من الخلق: " **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** "[٦]، والمسألة عندها إنما تخص القدرة الإلهية التي هي موضوع الإيمان أو عدمه.

---

[١] - ص: ٧١

[٢] - الحجر: ٢٨

[٣] - الأعراف: ١١

[٤] - الأنفطار: ٧

[٥] - آل عمران: ٤٩. المائدة: ١١٠

[٦] - آل عمران: ٥٩

القفزة النوعية التي أصبح بها الطين بشراً قد حدثت لآدم ثم أُدرج التناسل بعدها تبعاً للقانون أو ما يسمى بالقانون الطبيعي المعني بقوله تعالى: " **ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** "[1]، وإن نحيت جانباً هذا القانون فالمساواة لا بد واقعة بين آدم وعيسى عليهما السلام، أي: لا أوادم كُثر، وعيسى معجزة وما خُلق كآدم بالمطلق، إنما كمثل لخلق آدم البداية واصطفاء آدم بقوله: "**إن الله اصطفى آدم ونوحاً**.."[2] لا يعني اصطفاؤه من أوادم، إنما هو اصطفاء لآدم وذريته من بين كل الأنواع، لخلافة الله في أرضه، ولا سجدت الملائكة إلا لأبي البشر، فآدم واحد ولا آدم سواه.

ـ **قيمة آدم عند الله:** آدم خليفة الله في أرضه، والملائكة أُمرت بالسجود له وبه كان الإبتلاء والشقاء على إبليس " و**إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال: إني أعلم ما لا تعلمون** "[3].

إن الأرض التي تحدثت عنها الآية هي بالطبع غير المكان الذي دار فيه الحديث بين الله والملائكة، والملائكة كانت تعرفها، وتعرف ما فيها من الكائنات وطبيعة أفعالهم، واحتجاجهم بالدم لم يكن عن غيب إنما

---

[1] ـ السجدة: ٨

[2] ـ آل عمران: ٣٣

[3] ـ البقرة: ٣٠

لإدراكهم بالذي تفعله الحيوانات على الأرض من إفساد وسفك دماء، فالحيوانات إذاً كانت موجودة على الأرض قبل أن وجد الإنسان عليها أو قبل أن خلق من طين، وليس في ذوات الدم غير الحيوان ثم الإنسان بعدئذ.

ثلاثة أنواع: الملائكة، الجن، وإبليس " **كان من الجن ففسق عن أمر ربه** "[1]، وآدم والحيوانات التي على الأرض، لقد أمر الله الملائكة وإبليس الذي من الجن بالسجود لآدم " **فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين** "، " **فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين** " [2]، " **ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئده قليلاً ما تشكرون**"[3].

الملائكة أذعنت لعلم الله وسجدت لآدم، وإبليس احتج لمعصيته الأمر بطبيعته الأفضل ظناً منه بأن السجود للطبيعة الأفضل، لا أن للأمر الذي فيه الحد بين الطاعة والمعصية.. " **قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال:**

---

[1] - الكهف: ٥٠
[2] - الحجر: ٢٩
[3] - السجدة: ٩

أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين "[1]، **" قال أأسجد لما خلقت طينا "**[2].

آدم ومذ نفخ الله فيه من روحه كان كائناً عاقلاً، وقد حاج الله الملائكة بما أصبح لآدم من عقل، أو بقدرته على التعلم الذي هو من العقل، وبتعلمه الأسماء والنطق بها، كان تميزه عن كل أصناف الحيوان " و**علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون "**[3].

أما قوله تعالى: " أنبئوني "، " أنبئهم "، " فلما أنبأهم "، " غيب السماوات والأرض "، فالمقصود منه أن أسماء المسميات التي عرضت على الملائكة كانت مجهولة لديهم وهي بعض ما تعلمه آدم من ربه.

ملاحظة: قد يقال ولكن المعلوم من شأن الكتابة أنها قد خضعت للتطور من رسوم وأشكال وعلامات حتى استقرت للتعبير عن الأصوات في نهاية

---

[1] - الأعراف: ١٢
[2] - الإسراء: ٦١
[3] - البقرة: ٣١ – ٣٣

الأمر، ولكن الكتابة شيء والأسماء شيء آخر، وأن الله عز وجل لم يقل بأنه قد علم آدم الكتابة وليس أحداً له القول بتعلم الكتابة قبل النطق بالأسماء صوراً كانت أو أحرفاً.

- **آدم والجنة:** لقد خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه أو زوده بالعقل الذي به يعقل الأمر والنهي ثم أسكنه الجنة للإختبار والإبتلاء: " و**قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين "**[1]، " **فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكم عدو مبين"**[2]، " **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى "**[3].

[1] - البقرة: ٣٥ – ٣٦
[2] - الأعراف: ٢٠ – ٢٢
[3] - طه: ١١٨ – ١١٩

ومن هذه الآيات نجد ما يلي:

١ – لا جوع ولا عطش في الجنة وسبل العيش فيها سهلة ولا تعب في تحصيلها.

٢ – لا عري في الجنة لآدم ولحواء: " إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى "، " **فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما** "، أي: حتى ظهرت العورة منهما.

٣ – الشجرة غير معينة النوع في القرآن، ولكن من فعل الشجرة التي أكلا منها حتى أصبحا على حالة منكرة، ربما هي من النوع المخدِّر أو المسكر، حتى نزعا ثيابهما وهما على السكر، وبزوال مفعوله أدركا حالهما المشينة فهرعا لستر عورتيهما بورق الشجر الذي لا تحديد أيضاً لنوعه.

٤ – الموجود في الجنة آدم وحواء، وبالوسوسة إبليس " فوسوس لهما "، أو وإبليس " فاهبط منها ".

٥ – إبليس أقسم كذباً لآدم وحواء، " وقاسمهما "، " فدلاهما "، وحيث صدقاه معاً بإغراء الخلود والطبيعة الملائكية الأفضل كان سقوطهما في المعصية حيث جرهما إبليس إلى حجته في عدم السجود لآدم، فسقطا معه،

فحواء ليست هي المسؤولة وحدها عن الأكل من الشجرة ولا آدم وحده، ولا وجود للحية وإلى ما هنالك من تهيؤات القصاص وصناع الأساطير الذين اعتمدوا التوراة سنداً لهم.

- الطرد من الجنة: عصى آدم ربه بمخالفة أمره، فعاقبه الله بطرده وزوجه من الجنة " وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو " فالبعض الأول: آدم وحواء، والبعض الثاني: إبليس، وضربت العداوة بينهما إلى يوم البعث والنشور: " **قلنا اهبطوا منها جميعاً** "[1]، ولإبليس من باب التقريع حيث اصراره المستمر على صواب حجته بأفضلية الطبيعة، قال سبحانه : " قال: **فاهبطوا منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين** "[2]، فإبليس ورغم عصيانه الأول ما زال في الجنة كوجود مكان أو وسوسة حتى إذا استمر في عصيانه وجر غيره لضلاله كان طرده منها، فالجنة كما هو ملاحظ هنا ليست على الأرض، ولا هي غابة مثمرة أو حديقة عند فم الأنهار: " **اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع**

[1] - البقرة: ٣٨
[2] - الأعراف: ١٧

إلى حين "[١]، " **قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون "**[٢].

فالأرض المعنية بالهبوط " ولكم في الأرض مستقر " إنما ذكرت ككل له النفي لاحتمال أن تكون الجنة بعضاً منها، لأن المستقر في كل الأرض لا في جزء دون جزء آخر، أما من حيث أن الجنة للقرود الشجرية، وطردها هو هبوطها على الأرض، فكلام غير معقول، لأن الله يقول: " اهبطوا منها جميعاً "، " اهبطوا بعضكم لبعض عدو "، أي وطالما إبليس معني بالهبوط، فكيف لهؤلاء البرهنة أنه كان ساكناً للأشجار مع القرود، ثم أن الوحي للأنبياء والرسل، هل تراه محدوداً ببعض الأرض دون بعض، " فإما يأتينكم مني هدى ", وهل من أمة خلت من نذير؟ فالجنة التي كان فيها آدم ليست على هذه الأرض، وقد تنعت بجنة الإبتلاء لا الخلود هذا ممكن، ولقد قال تعالى من جهة أخرى: " **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة "**[٣]، فالخطاب هنا لكل ساكني الأرض من بني آدم وهل من بقعة في الأرض لم يسكنها الإنسان بعد؟ ولو كانت الجنة على الأرض لاستثنى الساكنين في الجنة في دلمون أو في فم

---

[١] ـ البقرة: ٣٦
[٢] ـ البقرة: ٣٨
[٣] ـ الأعراف: ٢٧

الأنهار أو في مناطق الرخاء من الغابات أو الحدائق والبساتين، فالأرض المذكورة لا تعني بعض الأرض والذين قالوا بالبعض إنما قالوه تأويلاً وتخريجاً غير مباشر دون النظر إلى كلية العناصر في هذه المسألة.

ـ **توبة آدم:** يقول الله تعالى: " **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** "[1] وهذا بالطبع بعد طرده من الجنة إلى الأرض فـ" كلمات " = " يأتينكم مني هدى " وباستجابة آدم لهدى التوبة وطلب المغفرة كان أن غفر الله له، والمستفاد من قضية التوبة هذه أنه لا إنسان فُطر على الخطيئة كما زعمت أساطير القدماء، طالما لا توريث لخطيئة إن غُفرت لمن ارتكبها.

ـ **أولاد آدم:** يقول الله تعالى: " **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين، لأن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف**

[1] ـ البقرة: ٣٧

يواري سوءة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين "[١].

والمستفاد من الآيات ما يلي:

١ – خبر هذه القصة كما ذكره الله هو الخبر الحق، أو " بالحق " وبهذا تميزت هذه القصة عن المذكور في الأساطير والتوراة حول الصراع بين الراعي والفلاح أو بين أخوين على زوجة، كل ذلك لا علاقة له بالصواب الموضوعي، وإن سطروا أساطيرهم على نفس المنوال فمما طرأ على الذاكرة الشعبية من خلل أدى لانحراف أقوالهم عن الحقيقة.

٢ – القرابين موجودة منذ آدم وما هي بالمستحدثة، بل المستحدث هو شذوذها وخروجها عن طبيعة النبوة حتى أصبحت القرابين بشرية أو بأعضاء بشرية تقدم للآلهة، وقرباني ولدي آدم من جهة أخرى إنما يعني أن التملك هو الآخر ليس بالأمر المستحدث كما زعمت بعض المذاهب الفلسفية، فمشاعية الملك أو الأملاك إن وجدت فهي الخروج عما كان موجوداً بالأصل، أو هي حالة نادرة في التاريخ البشري، وإن قيل إن

---

[١] - المائدة: ٢٧ – ٣١

اختلاف ولدي آدم على الزوجة فهذا معناه أن لا وجود لمشاعية جنسية كالذي وجد فيما بعد.

٣ – آدم نبي ولا خلاف في هذا بين علماء الإسلام، وولدي آدم أو أحدهما على الأقل يعتقد بوجود رب واحد للعالمين، " **أخاف الله رب العالمين** "، كما يعتقد بالحساب بعد الموت وبوجود الجنة والنار " **فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين** ".

٤ – الدفن، وطالما كان حدوث أول ميت أو مقتول على الأرض كان الدفن مجهولاً لابن آدم، حتى قلد الغراب في فعلته، فدفن أخاه في التراب ولا شيء معه، وهذا معناه أن كل ما يقال عن مرحلة صناعة القبور، وما وضع في القبور من أشياء كالطعام والشراب والأسلحة ودفن الأحياء لا علاقة لكل ذلك بمرحلة آدم أو ببداية تاريخ الجنس البشري، فحيث تم إدراك محتويات للقبور أو لقبور على صناعة فآدم قبل ذلك.

٥ – ابن آدم نعت الغراب باسمه " هذا الغراب "، وهذا معناه أنه بالتعلم من أبيه تعرف إلى أسماء الأشياء ومسمياتها أي هو عاقل وقبل مرحلة ما قبل التاريخ، أو ما سمي بمرحلة الإنسان العاقل.

٦ – وقوله تعالى " ابني آدم " معناه أن المجتمع الأول هو مجتمع ذكوري لا أنثوي أمومي، وإلا لنسبهما الله إلى حواء، فالمجتمع الأمومي وإن وجد في بؤرة من بؤر التاريخ فليس إلا عن حدث طارئ، كنقص الرجال إثر حروب طويلة، أو فساد جنسي، بانتشار المشاعية الجنسية التي رعاها كهنة المعابد الوثنية، فإن كان الرجال على طبيعة صحيحة فـ " الرجال قوامون على النساء " وإن كان النقص والعجز والخلل فلا بد للنساء عندها من سد هذا الفراغ وإن فعلوا فالقوامة عندها لهن.

ملاحظة حول المسكوت عنه في القرآن: المسكوت عنه في القرآن هو ما يلي:

١ – لا ذكر لنوع شجرة الإبتلاء التي في الجنة.

٢ – لا ذكر للحية في قضية الغواية، وكل العلة ربطها سبحانه بإبليس لا بحواء وحدها ولا بآدم وحده بل باستجابتهما للشيطان معاً.

٣ – لا ذكر في القرآن لأسمي ابني آدم، ولا إلزام للإسلام بـ" إيل " من قابيل، هابيل، آرامية كانت أو بابلية أو سريانية.

٤ – لا ذكر لنوع القربان الذي قدماه.

٥ – لا ذكر في القرآن لتفاصيل خلق أو وجود حواء، أما القصاص وبعض المفسرين، فقد استعاروا كل الجزئيات التفصيلية هذه من التوراة حيناً ومن أساطير القدماء حيناً آخر حتى وقع الهرج والمرج، وسوء الإختلاف، وتحولت القصة برمتها على أيديهم إلى حكاية خرافية أو أسطورة بكل ما للأسطورة من معنى ومعايير. فقصة خلق آدم بالدرجة الأولى إنما لاستنتاج المستقيمات الصحيحة التي على الباحث بالتاريخ وما وراء التاريخ أن يلتزم بها، وإلا فهي الظنون المحايدة عن الصدق والكذب، وهي بالدرجة الثانية للعبرة والتعرف على قدرة الله، وعلى قيمة الإنسان كنظرة كونية سواء بمقارنته مع بقية الأنواع أو بتسخير الكون للمحافظة على وجوده أو بقائه أو بالتعرف على قيمته من حيث اصطفاه الله كخليفة له في أرضه.

ـ الأساطير والذاكرة الشعبية:

إن من قصد البحث في تاريخ البشر الفكري أو العقائدي أو الملحمي والأسطوري دونما اعتبار لطبيعة الذاكرة الشعبية وما يطرأ عليها من نواقص وتشوهات، فجهده سدى ومضلل وواهم من زعم الوصول إلى حقيقة الواقع من خلال تدوين المتداول في الذاكرة، فالأساطير لم تدون إلا منذ عهد قريب جداً ولولا انتشار الكتابة وشيوع أمرها لبقيت على المشافهة والتذكر دونما حد له إيقاف تطوراتها أو تشوهاتها.

الماضي لن يموت لا فرق في هذا بين ما كان عن المجتمع الأول آدم وبنيه والأنبياء بعده، وما وصل إلينا من عهود تداول الأساطير، وإليك أيها القارئ العزيز بعض ألفاظ إنكليزية وما كانت تعنيه في عهد الأساطير: " كلوث " تعني الثياب، هي نفسها " الإلهة كلوتو " التي تغزل خيط الحياة على مغزلها "[١] حسب اعتقاد اليونانيين، و" كرونوس " تعني الزمن ومنها " كرونو متر " وكرونوس بالأصل واحد من الآلهة " وإيروس " ابن الإلهة " أفروديت " صاحب سهام الحب أصبح أسمه يعني " الحب " وربات الفنون التسع " موسيس " أصبحت تعني " الموسيقا،

[١] ـ ص ٢٠٢ ميثولوجيا الأبطال

و" تيفون " الوحش الأسطوري أصبح معناه كل إعصار مدمر، و" فولكان " رب الحدادة عند الرومان أصبح معناه البركان بالإنكليزية والعربية، وإلهة الحب " أفروديت " أصبحت تعني الحب، و" أطلس "، " الطيطان الجبار " الذي حمل السماء على كتفيه أصبح معناه المخطط أو الخريطة، والكلدانيون الذين قسموا أيام الأسبوع حسب عبادتهم للآلهة: زحل، الشمس، القمر.. الخ، هي نفسها في الإنكليزية، ستاردي أي يوم زحل، سن دي أي يوم الشمس، مندي أي يوم القمر"[١]، والأراضي التي تسقى بالمطر والندى حتى الآن نسميها أراضي بعل أو بعلية و" بعل " هو نفسه إله السحاب و المطر والندى عند البابليين، وأرض بعل كانت تعني الأرض التي يرويها الإله بعل بالمطر "[٢]، تمييزاً لها عن الأراضي السقوية، وتشبهاً بفعل بعل أصبحت بعل تعني الزوج الذي يسقي زوجته ماء الحياة كما يقال، ومن أسم إلهة الخصب " عشتار "، كانت لفظة " العِشرة "، " عاشرها " للدلالة على الفعل الجنسي " وعشَّرت "، " معشرة " دلالة على الحمل عند الحيوانات، والإله " إنليل " إله الظلام هو الليل " ولا يزال العرب إذا سمعوا الغناء المطرب صاحوا: يا ليل "[٣]، والإلهة "

[١] - ص ٢٣٤ معالم حضارات العالم القديم
[٢] - ص ٣٢١ مغامرة العقل الأولى
[٣] - ص ٥٢ تاريخ العلوم عند العرب

عشيرة " أو " إيلات " زوجة الإله " إيل "، كان من ألقابها سيدة البحر " وما زال أسمها حتى الآن يطلق على الخليج المعروف في البحر الأحمر باسم " خليج إيلات "[١]، والإله " يم " أو المياه الأولى ابن " إيل " ما زال اسمه يستخدم دلالة على البحر، ونهر من أسماء " يم "، وحيث كان هذا الأسم وصار استخدم للدلالة على المياه العذبة، وبيروت بالأساس هي مدينة الإلهة " بارات "، وكوكب المريخ هو نفسه الإله البابلي " مردوخ "، ومدينة " طبرية " تعود باسمها إلى القيصر الروماني " طيباريوس " الذي بناها "[٢]، والإسكندرية إلى الإسكندر، ولما افترس الخنزير البري " أدونيس " أو النعمان انتثر دمه على الزهور البرية فصبغها باللون الأحمر وما زلنا نسمي هذه الزهور الحمراء بشقائق النعمان، والإلهة عشتار كانت تكنى " أم الزلف " أو ذات الثوب الموشى " وما تزال أغنية أم الزلف مستمرة في سوريا ولبنان إلى يومنا هذا "[٣]، وحيث عبد العرب الشمس قديماً " كان الغلام منهم إذا سقطت له سن اخذها بين السبابة والإبهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال: يا شمس ابدليني بسن أحسن

---

[١] - ص ١٠٣ مغامرة العقل الأولى

[٢] - ص ١٠٨ التنبيه و الإشراف

[٣] - ص ٤٦٣ تاريخ سورية الحضاري القديم

منها "[1]، " والناس اليوم في صبيانهم على هذا المذهب "[2]، وفي مصر كانت أسماء الأعداء تكتب على جرة ماء من الفخار، لكسرها إن قصدوا إلحاق الأذى بأصحاب الأسماء "[3]، وانتقلت هذه العادة إلى العرب، فكانوا إذا رحل الضيف أو غيره عنهم وأحبوا أن لا يعود كسروا شيئاً من الأواني وهذا مما يعمله الناس اليوم أيضاً "[4].

والملاحظ من هذه الأمثلة كما نرى هو انفصال المسميات عن أسمائها فزالت الآلهة وبقيت الأسماء، حتى اصبحنا على التكلف إن أردنا الربط بينهما، ونُسيت الأساطير حتى ابتلعها الدهر وكأنها لم تكن شيئاً مذكوراً، وهذا ما تفعله الذاكرة حتى لا تبقي من الأصل مع مرور الزمن إلا الشيء اليسير مما كان في الواقع، رغم أنه لا مسافة طويلة بيننا وبين تدوين الأساطير مقارنة بالأحداث التي كانت عنها. وهناك نوعاً آخر من التشوهات، وهو أيضاً مما يُعزى إلى الذاكرة، فالإله بعل هو " حدد " أي الواحد ذو التجليات المتعددة، أو الصفات العديدة، ولما اتخذته عدة مدن كإله لها، مثل: " بعل صيدون " و" بعل بريث " و" بعل حرمون " وحيث اصبحوا يخصونه بعبادات مختلفة، حسب اختلاف صفاته، تحولت صفاته

[1] - ص ٣١٨ ج٢ بلوغ الأرب
[2] - ص ٣١٩ نفسه
[3] - ص ٣١ مجلة عالم الفكر عـ٣ ١٩٨٥
[4] - ص ٣٣١ ج٢ بوغ الأرب

عندئذ إلى آلهة ثانوية قائمة بذاتها دعوها " البعليم " جمع " بعل ".. وأمسى الإله الواحد منقسماً إلى آلهة متعددة "[١]، والملائكة أمثال ميكائيل وإسرافيل وجبرائيل وعزرائيل الذين هم لتنفيذ أوامر الله قد ذكروا عند المصريين والعرب القدماء بـ " الآلهة الخالقة "[٢]، والنعت الجديد بالطبع لم يكن موجوداً عند آدم والأنبياء بعده. وهناك نظرية لتفسير آلهة الأساطير على أنها كانت ملوكاً في قديم الأزمنة وفيما بعد تحولت الملوك إلى آلهة "[٣]، وسواء كان أساسها ملوكاً أو عن أخبار من الأنبياء فالذاكرة هي على التشوهات، والأساطير قبل أن دونها " هزيود "، كانت ممعنة في القدم، وتمتد بجذورها إلى ما قبل التاريخ، ولا بد تعرضت إلى مسيرة طويلة من التحوير والتعديل "[٤]، فمأساة الأساطير أنها انتقلت " من جيل إلى جيل بالرواية الشفهية "[٥]، مما جعلها " كالحلم الذي يبدو غامضاً متنافر الوقائع "[٦]، ولكنها " حافظت على عناصرها الأساسية، رغم ما اقتنصته مراحل التطور المتعاقبة من تعديل في الشكل والصياغة "[٧]، " وأننا نعجز عن أن

---

[١] - ص ١٢٦ الأصول الكنعانية للمسيحية
[٢] - ص ١٩٤ تاريخ سورية الحضاري القديم
[٣] - ص ١٩٠ ملامح من الأسطورة
[٤] - ص ١٨٦ نفسه
[٥] - ص ٢١ مغامرة العقل الأولى. ص ٦٣ لغز عشتار
[٦] - ص ٢٦ نفسه
[٧] - ص ٢٧٧ نفسه

نتخيل مجتمعاً أمياً في جوهره وأعماقه يتوارث المأثورات من جيل إلى جيل، دون أن يدخل عليها تحويرات أساسية أثناء عملية التواتر والتوارث"[١].

أما الآن وبعد أن تعرفنا على المستقيمات المستقاة من قصة آدم وبعد أن تعرفنا إلى بعض الأدوار التشويهية للذاكرة، سننطلق إلى البحث فيما تعنيه البدائية، وطبيعة الأساطير وما كان عنهما من نتائج.

١ - ص ٢٢٥ علم الفلكور

- تعريف البدائية:

ليس من تعريف واحد جامع مانع للبدائية، لأن البدائية موضوع البحث واسعة جداً ومتعددة الأطراف والعناصر، ونظراً لاختلاف غايات الباحثين واهتماماتهم اختلفت التعاريف، حتى أصبح لكل مدرسة من مدارس الأنثربولوجيا تعريف يخصها دون غيرها، وبالاختصار والدمج فيما بينها يمكن أن نقول: أن هناك ثلاث وجهات نظر مختلفة بعضها عن بعض، وهي كما يلي:

١ – النظرة العنصرية: وأصحابها جعلوا من أنفسهم العنصر الأعلى بين البشر، وغيرهم دونهم إنسانية وعقلاً، واليونانيين القدماء نعتوا كل ما ليس منهم بالبرابرة المتوحشين، وكثير من الأوروبيين فيما بعد، قد ساروا على رأيهم، والأسقف " إيزدور " ٥٦٠ – ٦٣٦ م في موسوعته " ذكر مثلاً أن قرب الشعوب أو بعدها عن أوروبا يحدد درجة تقدمها، فكلما كانت المسافة بعيدة، كلما كان الإنحطاط والتدهور الحضاري مؤكداً، وليس هذا فحسب، بل أنه وصف أولئك الناس الذين يعيشون في أماكن نائية، بأنهم سلالات غريبة الخلقة، حيث تبدو وجوههم بلا أنوف "[١]، وقد

[١] - ص ٥٢ قصة الأنثربولوجيا

قال بهذا الرأي حديثاً " ليفي برول " و" كون " و" فيرث " و" هوسكو فينز " وكل هؤلاء قد جعلوا من الحضارة الأوروبية أو الإنسان الأوروبي كأرقى حلقة في سلم التطور البشري، أو كأرقى نوع بين البشر، واتصالاً بهذه النظرة تم تعريف البدائية بأنها اللاتمدن، وممن قال بذلك أيضاً: كالس، كرويبر، غولد فوايزر.

والملاحظ أن النظرة العنصرية تعتمد على مبدأين: إما القول بأكثر من آدم أو بأكثر من أصل للبشر، وإما القول بالتطور المؤدي إلى قمةٍ لا وصول لغير هذا العنصر أو العرق لها، أو بأن هذا العرق مختلف في عقله ودمه عن دماء الآخرين وعقولهم. ولكن لا آدم غير واحد ومذ وجد كان عاقلاً، " وكلكم لآدم آدم من تراب "، وإبليس قد ظلَّ لما طالب بأفضلية النار على الطين.

٢ – يرى أصحاب هذه النظرة أن البدائية تعني التوحش، التبربر، الهمجية، القدم، المنقرضين، ما قبل الإنسان العاقل، كائنات ما قبل التاريخ الذين لم يعرفوا الكتابة، وممن قالوا بذلك: مورغن، وتايلر، وصول تاكس، مالينو فسكي، هر سكوفتز، هومانز، ميد، ردفلد، رادكليف برون. وهذه النظرية تعتمد على فكرة تطور الإنسان فيزيولوجياً عن القرد، ولكن تحديد البدائية بمرحلة ما قبل الكتابة أو بما قبل التاريخ، قد اصطدم بعقبة يصعب

النجاة منها، حيث تم ادراك شعوب بدائية معاصرة ولا تعرف الكتابة كالهنود الحمر في امريكا واستراليا، وفي جزيرة تسمانيا، وقبائل البوشمن، والبجمة، والهوتنتوت في أفريقيا، وجماعات جنوب شرق آسيا، وجماعات الأسكمو في المناطق القطبية الباردة.

٣ ـ النظرة الإنسانية: قال أصحاب هذه النظرية بأن البدائية تعني البساطة والسذاجة والبراءة، وممن قال ذلك: كير كفو، هومانز، رادكليف براون، أما " فرانسس هو "، فقد نهى عن استخدام لفظة البدائية، خشية جرح مشاعر الشعوب الأخرى، مما قد يؤدي إلى كره المستعمرين، و" هوسكو فيتز" ولنفس الغرض نهى هو الآخر عن استخدام مصطلح ما قبل الكتابة لأن اللاكتابة تعني الأمية التي لا يجوز تحقير أي شعب بها، وكبدائل عن مصطلح البدائية كان استخدام مصطلح " المجتمعات الصغيرة " أو " المعزولة " على حد تعبير " فورتس" و" أفنز برجرد " و" نادل ".

أما نحن فليس لنا الآن تحديد معنى البدائية، وليس لنا هذا إلا بعد الإحاطة بها أو بمحاورها الثلاثة التي تعني المنهج المعرفي والعقائدي والاخلاقي، بما لهؤلاء جميعاً من أسس ومبادئ عند البدائيين.

ـ القبور وما قبل التاريخ:

" من المعروف أن كلاً من التاريخ وعلم الآثار يدرسان الماضي الإنساني، ولكن التاريخ يتعلق ويرتبط بالكلمة المكتوبة، أما علم الآثار فيدرس الماضي بواسطة الأشياء التي صنعها البشر، والمخلفات المادية التي تركوها "[1]، وعصور ما قبل التاريخ " هي العصور السابقة لاكتشاف أول نظام معروف للكتابة في بلاد ما بين النهرين، ويطلق عليها اسم العصور الحجرية نسبة إلى المادة الرئيسية التي صنع الإنسان منها أدواته "[2]، ونظراً لطول هذه الحقبة من الزمن مقارنة " بالعصور الكتابية التاريخية التي لا تمثل إلا الخمسة آلاف سنة الأخيرة من تاريخ الإنسان "[3]، فقد قسمت إلى: حجري، نحاسي، برونزي، حديدي وهي كما يلي:

١ – العصر الحجري القديم، ويتألف من ثلاثة عصور:

أ – العصر الحجري الأدني " الباليوليت ": ١٠٠٠٠٠-٢٣٠٠٠٠٠ ق.م، وقد عاش فيه الإنسان الحيوان على الالتقاط والصيد، وهو على التنقل وعدم الاستقرار.

---

[1] ـ ص آ الآثار الرومانية

[2] ـ ص ٩٩ – ١٠٠ علم الآثار الشرقية

[3] ـ ص ١٤ عصور ما قبل التاريخ

ب – الباليوليت الأوسط: ١٠٠٠٠٠ – ٣٥٠٠٠ ق.م، وفيه كان إنسان النياندرتال.

ج – الباليوليت الأعلى: ٣٥٠٠٠ – ١٢٠٠٠ سنة ق.م، وفيه كان الإنسان العاقل، وهو جد الإنسان الحالي.

٢ – العصر الحجري الوسيط " الميزوليت ": ١٢٠٠٠ – ٨٠٠٠ سنة ق.م، بنى فيه البيوت، واستقر وامتهن الصيد.

٣ – العصر الحجري الحديث " النيوليت " ٨٠٠٠ – ٤٠٠٠ سنة ق.م، وقد مارس الإنسان فيه الزراعة وتدجين الحيوانات.

٤ – العصر الحجري النحاسي " الكالكوليت ": ٤٠٠٠ – ٣٠٠٠ سنة ق.م، استخدم فيه الإنسان النحاس المطروق، ويمثل هذا العصر الحد الفاصل ما بين عصر الكتابة والعمران وعصور ما قبل التاريخ.

٥ – العصر البرونزي: ٣٠٠٠ – ٢١٠٠ سنة ق.م

٦ – العصر الحديدي: ٢١٠٠ – ٣٣٣ سنة ق.م

أما من حيث الدفن وصناعة القبور ربطاً بهذه العصور، يقول " آندريه إيمار ": " ويؤيد أكثر من اكتشاف علمي أن الإنسان، منذ العصر الحجري

القديم " الباليوليت " أخذ يهتم باطراد صاعد، بموتاه وتأمين دفنهم، وإعداد أجسادهم وتجميعها في محل معين وبحاجاتهم "[١]، وطالما أتقن إنسان هذا العصر " تصنيع العظم والخشب، إلى جانب الحجر "[٢]، وطالما عاش " كجماعات صغيرة يربطها نظام اجتماعي ولغة تفاهم"[٣]، فلا بد أنه أصبح على مرحلة تصنيع القبور، و" صولتاكس " يقول أيضاً عن حقبة الباليوليت الأولى: " يظهر أول دليل على دفن الموتى بين البشر في هذه الفترة، فقد وجدت جثث مطوية وأخرى ممددة، كما تتفاوت محتويات القبور من الحلي الصدفية والأدوات الصوانية إلى عظام الحيوانات والمغرة الحمراء، وقد وجدت بعض القبور محددة بالحجارة، ووجدت الجثث في بعضها مثقلة بألواح صخرية "[٤]، وفي الباليوليت الأوسط، عند النياندرتال تم الكشف في الموقع الإفرنسي الشهير " لافرسي " في جنوب فرنسا على مقبرة كبيرة مبنية بالحجر وجد فيها " جثتا رجل وامرأة وضعتا بشكل مثني، رأس الرجل مفتول نحو الغرب، ورأس المرأة نحو الشرق، وكانت ترافق الجثتين أدوات حجرية كحراب وسكاكين.. وفي قبر آخر دفن طفلان في حفرة بلا غطاء حجري، وفي منطقة ثالثة وجدت

---

[١] - ص ٢٥ تاريخ الحضارات العام: الشرق و اليونان القديمة

[٢] - ص ١٢٦ عصور ما قبل التاريخ

[٣] - ص ١٣١ نفسه

[٤] - ص ١٤٥ البدائية

مجموعة حفر في واحدة منها جثة طفل ثني جسده وقطع رأسه، ودفن في قبر مستقل "[١]، وفي العصر الميزولتي، تبين من مكتشفات قرية " زاوي جمي " أن السكان قد مارسوا " دفن موتاهم في الكهف، وبلغ مجموع المدافن فيها ٢٨ قبراً مجمعة في شكل مقبرة "[٢]. وفي العصر الحجري الحديث " النيوليت " في حوض الفرات الأعلى وجد أن " السكان يدفنون موتاهم ويرشون عليهم ألواناً حمراء، وتوضع الجثة بشكل تُضم فيه الأطراف إلى الجسم، وهنالك مدافن جماعية احتوى أحدها ١٦ هيكلاً عظمياً "[٣]، وفي تل الصوان ٥٦٠٠ ق.م، عُثر على موتى دفنوا في وضع ضمت فيه الأطراف إلى الجسم " القرفصاء " وقد أودعت مع الموتى بعض حلاهم الشخصية من الصدف والقواقع والمرمر وخرزات من حجر أخضر وأحمر ضُمت في خيط "[٤]. وفي عصر الكالكوليت وُجد عند الحلفيين " دفن الموتى إما في قبور محفورة بالأرض وضعت فيها الجثث مثنية ومعها العديد من الهدايا كالفخار وأدوات الزينة، وأحياناً فُصلت الجماجم ووضعت في أوان خاصة "[٥]. والعبيديون الشماليون " دفنوا

[١] - ص ١٥٣ عصور ما قبل التاريخ
[٢] - ص ١١٩ علم الآثار القديم
[٣] - ص ١٣١ نفسه
[٤] - ص ١٣٤ علم الآثار الشرقية
[٥] - ص ٧٦ آثار الوطن العربي القديم

موتاهم داخل قراهم وتحت أرضيات بيوتهم "[١]. وفي جنوب آسيا الصغرى في الأناضول، اكتشفت هناك في الألف الثامن والنصف الأول من الألف السابع ق.م آثار على نمط " آري " ٨٠٠٠ – ٧٠٠٠ ق.م بلدات ذات أرضية مبلطة في البيوت ومدافن للجماجم تحت الأرض "[٢].

أما من حيث تداخل العصور، فإن " أريحا " المصنف وجودها في عصر الصيد، فاجأت العلماء لما وجدوها قرية يقوم اقتصادها على الزراعة وتربية الحيوانات "[٣]، وتحديد العصر بالنحاس والحديد هو الآخر من المغالطات، لأن ما يلزم قبل هذا التحديد هو البرهنة على تحصيل الإنسان للحرارة العالية التي تسمح بالسيطرة على النحاس وغيره، أما حجة الطَرْق إن قيلت، ففيها محو كل الفوارق بين العصور حجرية كانت أو نحاسية أو حديدية.

كلما تقدمت العصور كلما تقدم الفن إلى القبور، وليس من عصر من العصور المذكورة إلا وفيها دفن وقبور، وهذا معناه أن آدم الذي نفخ الله فيه من روحه، قد كان قبل كل هذه العصور، لأن قابيل القاتل أخيه، لم يكن على عمل وعلم بصناعة القبور ولا على علم بالدفن، ولما دفن أخاه

---

[١] - ص ٨٣ نفسه

[٢] - ص ٣٥ المدن الأولى

[٣] - ص ٣٤ نفسه

دفنه في التراب كما علمه الغراب، فأين وجدت المدافن وصناعة القبور ووجود أشياء فيها ترافق الموتى فاعلم أن آدم قبلها، وتبعاً لهذه العصور يكون آدم قد وجد بالقطع قبل ٢٣٠٠٠٠٠ سنة ق.م.

ـ التوراة ونظرية التطور:

إن التقديرات المستنتجة من الأنساب التي في التوراة لتحديد زمان آدم تقول: إن آدم وجد قبل أربعة آلاف عام ق.م، كما حسب اليهود الأنساب " من لدن خلق الله آدم إلى وقت الهجرة، فكان أربعة آلاف سنة وستمائة سنة واثنتان وأربعون سنة من عهد آدم إلى هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم"[1]، أما نصارى اليونان فقالوا: بل " خمسة آلاف سنة وتسعمائة سنة واثنتان وتسعون سنة وأشهر "[2]، والمجوس قالوا: " إن قدر مدة الزمان من ملك جيومرث " الذي هو آدم إلى وقت هجرة نبينا صلى الله عليه وسلم ثلاثة آلاف سنة ومائة وتسع وثلاثون سنة "[3]، وحيث اختلاط زمان آدم بزمان خلق الدنيا، يقول ابن العبري: " فمن بدء العالم إلى مجيء المسيح بمقتضى التوراة التي بأيدي اليهود أربعة آلاف ومئتان وعشر سنين بالتقريب، وبمقتضى التوراة السبعينية التي بأيدي الروم وسائر فرق النصرانية خلا السريانية خمسة آلاف وخمسائة وست وثمانون سنة بالتقريب "[4]، " ومن خلق العالم إلى ورود الطوفان على الرأي السبعيني

---

[1] ـ ص ١٩ ج١ تاريخ الأمم و الملوك
[2] ـ ص ١٩ نفسه
[3] ـ ص ١٩ , ٤٩٤ ج١ نفسه
[4] ـ ص ٦٧ تاريخ مختصر الدول

ألفان ومئتان واثنتان وأربعون سنة، وعلى رأي اليهود ألف وستمائة وست وخمسون سنة، وعلى رأي " السمرا " ألف وثلاثمائة وسبع سنين، وقال أنيانوس الراهب الإسكندري: إن مدة ما بين ابتداء خلق آدم وبين ليلة الجمعة التي كان فيها الطوفان ألفان ومئتان وست وعشرون سنة وشهر وثلاثة وعشرون يوماً وأربع ساعات "[١]، والمسلمون بدورهم، وبتأثر البعض بثقافات ما قبل الإسلام وخاصة اليهودية منها وبالبعض الذي كان يهودياً بالأصل، وبمن يميلون للغرائب فقد ضاهأوا اليهودية نقلاً او اجتهاداً وقاموا بتحديد عمر الدنيا أو زمان آدم، وقد نسب لابن عباس قوله: " الدنيا جمعة من جمع الآخرة، سبعة آلاف سنة، فقد مضى ستة آلاف سنة ومائتا سنة "[٢]، وقال الطبري وكعب الأحبار ووهب بن منبه: " الدنيا ستة آلاف سنة "[٣]، والمسعودي يقول: " من هبوط آدم إلى الأرض إلى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف سنة وثمانمائة سنة وإحدى عشرة سنة وستة أشهر وعشرة أيام "[٤]، وإخوان الصفا رووا حديثاً مكذوباً على الرسول ص، يقولون فيه: عمر الدنيا سبعة آلاف سنة "[٥]، والسهيلي "

---

[١] - ص ٩ – ١٠ نفسه
[٢] - ص ١٢٨ عجائب المخلوقات و غرائب الموجودات. ص ١٥ , ٤٩٥ ج١ تاريخ الأمم و الملوك. ص ١٤ ج٢ الخطط المقريزية. ص ٢٥ أخبار الزمان
[٣] - ص ١٥ ج١ تاريخ الأمم و الملوك
[٤] - ص ٢٦١ ج٢ مروج الذهب
[٥] - ص ٢١٩ ج٣ رسائل إخوان الصفا

جمع الحروف المقطعة في أوائل السور بعد حذف المكرر فأخذ عددها بحساب الجُمَّل فكان " الباقي من عمر العالم سبعمائة وثلاثة سنة "[1]، والواقدي " جمع سني الدنيا إلى مولد نبينا ص أربعة آلاف سنة وستمائة سنة"[2]

أما أهل النظر من المسلمين فقالوا: إن الله " لم يخبرنا بمقدار ذلك "[3] لا عن تحديد زمان آدم ولا عن عمر الدنيا ونهايتها أما عن التحديد بما ورد عن الرسول ص، فلا صحة له، وإن كان تحديد عمر البشر أو زمان آدم يعتمد الأنساب التوراتية، فقد قال الرسول ص في الحديث الصحيح: " كذب النسابون "، وقال النووي في نسب النبي ص: " والإتفاق على هذا النسب الشريف إلى عدنان وليس فيما بعده إلى آدم طريق صحيح، وقال القضاعي في " عيون المعارف ": وقد روي أن النبي ص قال: لا تجاوزوا معد بن عدنان، كذب النسابون، ثم قرأ: " وقرون بين ذلك كثير ". ولو شاء أن يعلِّمه لعلَّمه "[4]، وابن حزم يقول: " وأما نحن فلا نقطع على عدد معروف عندنا، وأما من ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل فقد كذب وقال ما لم يأت قط عن رسول الله ص في لفظة تصح، بل صح

[1] - ص ٢٣٢ مقدمة ابن خلدون
[2] - ص ٤٩٥ ج١ تاريخ الأمم و الملوك
[3] - ص ٢٦٢ ج٢ مروج الذهب
[4] - ص ٣٥٩ ج١ صبح الأعشى

عنه عليه السلام خلافه، بل نقطع على أن للدنيا أمراً لا يعلمه إلا الله عز وجل "[1]، والشيخ رشيد رضا يقول: إن تحديد عمر الدنيا أو زمان آدم " مأخوذ من الإسرائيليات التي كان يبثها زنادقة اليهود والفرس من المسلمين حتى رووه مرفوعاً، وقد اغتر بها من لا ينظرون في نقد الروايات "[2]، وابن خلدون يقول: " كان المعتمد في ذلك التحديد في صدر الإسلام الآثار المنقولة عن الصحابة وخصوصاً مسلمة بني إسرائيل مثل: كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما، وأما بعد صدر الملة وحيث ترجمت الكتب إلى العربية، فأكثر معتمدهم في ذلك كلام المنجمين "[3].

المسلمون إذاً رفضوا التحديد لزمان آدم وعمر الدنيا وقبل أن وجدت نظريات التطور في عصرنا الحاضر لأنه تحديد غير موضوعي، حيث لا إدراك يطاله، ولأن الله ورسوله لم يقولا بذلك التحديد، أما الإشكال الحقيقي فقد وقع على الكتاب المقدس، حيث تم الكشف الأثري عن وجود بشر قبل آلاف السنين من تحديدهما لزمان آدم، وأنها لطامة ولا بد لها من مخرج، وجيئ بنظرية التطور، وليس صدفة أن كان دعاتها ومفكريها من اليهود، ومخطئ من ظن أنها إلحادية، بل هي نظرية كهنوتية بلبوس علمي

[1] - ص ١٠٥ ج٢ الفصل في الملل و الأهواء و النحل
[2] - ص ٢٠٢ الإسرائيليات و أثرها في كتب التفسير
[3] - ص ٣٣١ مقدمة ابن خلدون

أو علماني، تقول النظرية: التحديد التوراتي لزمان آدم صحيح، وما قبل آدم كان شبيهاً به، فآدم التوراة هو قمة التطور عن القرد، وما قبله قرود بشرية، واستعانوا لهذا بالعصور وملايين السنين واقترحوا مسميات كيفوها ورسموها على هيئات تفي بالغرض، كتقوس الساقين ونتوء الجبهة وبروز الفكين، ليقولوا بعدها: هذا هو الإنسان الكروماني وذاك نياندرتالي، وهذا هو الإنسان العاقل آدم التوراة، فالتوراة تقصد العاقل وليس الذي قبله، والمؤسف أن كثيرين من عرب الحاضر تعاضدوا مع هذه النظرية تأويلاً لثقافتنا ودفاعاً عنها بحجة أنها علمية وأنهم متنورون أو لأنها بزعمهم سلاح ماض ضد الدين.

فالعالم السويدي " كارل فون ليين " ١٧٨٧ – ١٧٠٧ م في بحثه عن العهد الأول للإنسان، درس " الصلة القائمة بين الإنسان والقردة العليا، الأمر الذي جعله يخرج بمصطلح " الإنسان العاقل "[١]، ثم أتى بعده " لامارك وداروν " و" قد تراءى لداروν أن الإنسان قد نشأ من صورة دنيا هي أقرب إلى القردة العليا منها إلى أية صورة أخرى من صور الحيوانات الأخرى "[٢]، وقد برهن كما يقولون " برهنة علمية على أن

---

[١] - ص ١٢٠ قصة الأنثربولوجيا

[٢] - ص ١٢٣ نفسه

منشأ الإنسان من القرود قديمة التطور "[1]، " وأن القرود الشجرية المنقرضة " دربو بيتيك " هي التي كانت الأسلاف المشتركة للإنسان والقرود المعاصرة "[2]، أما " آندريه إيمار " فيقول: " ولا نعرف تاريخ أي شعب من شعوب الأرض يرجع إلى ما قبل الميلاد بأربعة آلاف سنة، فالإنسان في مثل هذه الحقب المتهالكة في القدم هو الإنسان الحيوان، أو الإنسان الشبيه بالبشر، أما الإنسان المنتصب القوام، ولا سيما الإنسان العاقل، المدرك فلم يظهر إلا بعد ذلك بوقت طويل "[3]، وحسين مؤنس يقول: " ويخطئ الكثيرون، عندما يتكلمون عن الإنسان وكأنه كان يتمتع منذ البداية بعقل كامل "[4]، وأحمد داوود تبرع بجهاز برمجة أضافه إلى البشر البهائمي حتى أصبح عاقلاً "[5]، كبديل عن النفخة الإلهية لآدم الطين، بل وجزم بأن آدم النبي، أي آدم الكتب المقدسة " يعود زمنه إلى أواخر الألف السادس ق.م "[6]، وللتطابق مع الواقع وبالإعتماد على تسمية التوراة لابني آدم كان الزعم بأن لغة آدم كانت سريانية، يقول: " لقد جاءت عقيدة التوحيد مقترنة بـ " إيل "، " الله " منذ عهد آدم، فكانت أسماء الكثير من

---

[1] - ص ٧ عرض اقتصادي تاريخي
[2] - ص ٨ نفسه
[3] - ص ٢٣ تاريخ الحضارات العام
[4] - ص ٧٣ عـ٢٣٧ الحضارة , عالم المعرفة
[5] - ص ٢٥٢ تاريخ سورية الحضاري القديم
[6] - ص ٦٤٦ نفسه

ابنائه مقترنة به "[1]، مثل هابيل، قابيل. ولكن دعك من التوراة كمصدر فليس كلها على صواب، وطالما هي برأيه عن بيئة الأساطير، ودعك من السريانية طالما آدم أقدم من ذلك بكثير فمن أين له إذاً الجزم بتحديد لغة آدم؟! فإن قال من الرسول، فالأولى أن يأخذ بالقرآن القائل بآدم العاقل مذ اجتمع الطين والنفخة، وقد قال الرسول ص من من جهة أخرى: " خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن "[2]، وهذا معناه أن كل الأصناف التي وجدوها ووزعوها على العصور، وبأي صورة ركبوها، كلها لا تتعدى الطول الحالي للإنسان، وما زال البون شاسعاً بين الموجود من العصور وعصر آدم عليه السلام. فنظرية التطور ما زالت نظرية استشرافية غير خاضعة للصدق والكذب، ونواقصها التي رممت كلامياً أو فلسفياً أكثر من أن تحصى وتعد، وأغلب العلماء الآن قد تخلوا عنها نهائياً، ولكنها ما زالت تناسب أهواء وأغراض أناس كثيرين.

" إن عمر الدنيا أو الإنسان أقدم بكثير من الألف الرابع ق.م أو من التقديرات المستنتجة من التوراة، بدليل العثور على أسلحته وهياكله العظمية الأولى في طبقات جيولوجية ترافقها عظام حيوانات تعود إلى

---

[1] - ص ٢٣٨ ــ ٢٣٩ نفسه

[2] - مختصر صحيح البخاري ١٢٨٧

مئات الألوف من السنين "[1]، والمخلفات المكتشفة في سورية في " ست مرخو " على حوض النهر الكبير، تعود إلى مليون سنة، كان الإنسان فيها على مجتمعات سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية "[2]، وأرنولد توينبي ، يقول: " إن أقدم آثار للإنسان عثرنا عليها ترجع إلى ثلاثمائة ألف سنة، وأكمل الهياكل العظمية الكاملة التي وجدناها ترجع إلى تسعة وأربعين ألف سنة "[3]، " وهذه النماذج البشرية التي وجدناها تتشابه في خصائصها البدنية العامة، وتتشابه أيضاً في خصائصها العقلية بدلالة ما وجدناه مع هياكلها من أدوات، وقد خفت الثقة اليوم بين علماء الغرب في أن الإنسان ينحدر من جنس البشريات أو القردة العليا، وغالبية العلماء اليوم يجمعون على أن الإنسان جنس قائم بذاته"[4]

- **التراث الإسلامي والشبه بين الإنسان والقرد:** من وجود الشبه بين الإنسان والقرد، " لم تأكل العرب لحم القرد، ولم تلتمس صيدها للأكل "[5]، وحيث صدَّق الجاحظ أكاذيب الرحالة قال: " وقد خبَّرنا من لا يحصى من الناس، أنهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان ولهم أذناب، فقد كانت لهم

[1] - ص ١٣ – ١٤ عصور ما قبل التاريخ
[2] - ص ٣١ تاريخ بلاد الشام
[3] - ص ١٩ عـ ٢٣٧ الحضارة , عالم المعرفة
[4] - ص ٢٠ نفسه
[5] - ص ٢٩ ج٤ كتاب الحيوان

عجوب طوال كالأذناب، وربما رأينا الملاح النبطي في بعض الجعفريات على وجهه شبه القرد، وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ إلا القليل "[١]، أي: إن هؤلاء برأيه هم من المسخ إلى القرود، ولكن " أهل الكتابين كما يقول ينكرون أن يكون الله تعالى مسخ الناس قروداً وخنازير "[٢]، والمسعودي يحدثنا عن منطقة قرب بحر الروم بين جبال أربعة قائلاً: " فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه والأغلب عليها صور الناس وأشكالهم، إلا أنهم ذوو شعر، وربما وقع في النادر القرد منها إذا احتيل في اصطياده فيكون في نهاية الفهم والدراية إلا أنه لا لسان له فيعبِّر بالنطق ويفهم كل ما يخاطب به بالإشارة، وفي ناحية الشمال في آجام وغياظ نحو أرض الصقالبة وغيرها ممن هناك من الأمم، كنحو ما وصفنا من هذا النوع من القرود، وقرب شكله من صورة الإنسان "[٣]، وصاحب بدائع الزهور المشهور بتهويلاته، يقول: في البحر الغربي، البحر الرابع " في بعض جزائره أشخاص متوحشة تسمى الغيلان، وهي تقرب من شكل بني آدم "[٤]، وفي بحر طبرستان " في بعض جزائره أناس

---

[١] - ص ٣٣ نفسه
[٢] - ص ٤٨ نفسه
[٣] - ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ مروج الذهب
[٤] - ص ١٤ بدائع الزهور

لهم ثلاثة أعين، فالثالثة بين حواجبهم "[1]، " ومن العجائب أن ببلاد الصين مدينة يقال لها جلسق، فيها رجال على صفة النسناس، لا يتكلمون إلا بالإشارة، ولهم أيد طوال تصل إلى أقدامهم عند الوقوف ولهم وثوب نحو عشرة أذرع في الهواء، ولم يأو هذا الجنس إلا في البساتين ويسكن على الأشجار، وينفر من الناس، ويتناكحون ويتناسلون ولهم إحليل طويل يصل إلى أفخاذهم وهم عراة الأجسام "[2]، وإخوان الصفا، وحيث صدقوا هذه الترهات، قالوا بوحدة الوجود " فالمعادن متصل أولها بالتراب وآخرها بالنبات والنبات آخره متصل بالحيوان وأوله بالنبات وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الحيوان كالقرد في التقليد والفيل في الذكاء والنحل في حسن التدبير "[3].

فمن الشبه بين القرد والإنسان، وبلمحة الذكاء التي تميز بها القرد كان الإفتراض بتطور الإنسان عن القرد ولكن الله يقول: أن بعض القرود وبعض الخنازير هم من عصاة اليهود الذين مسخوا إلى قردة وخنازير: " **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** "[4]، " **قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب**

[1] - ص ١٣ نفسه
[2] - ص ٢٨ نفسه
[3] - ص ١٥ ج١ رسائل إخوان الصفا
[4] - البقرة: ٦٥

عليه وجعل منهم القردة والخنازير "[1]، **" فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين "**[2]. ولو كانت صلة التطور بين الإنسان والقرد موجودة لقالها سبحانه وتعالى ولكنه ذكر المسخ كإعجاز في العقاب لا كقانون، حتى نكون في مأمن إن أنكرنا التطور عن القرد، لأن المسخ معناه الإنتقال من نوع إلى نوع، والإنسان بالنتيجة نوع قائم بذاته كما القرد نوع قائم بذاته، ولا إنتقال من أحدهما إلى الآخر إلا بالأمر التكويني المتعلق بالقدرة " كن "، " كونوا "، أو بالجعل " جعل منهم "، حيث لم يكونوا قروداً وخنازير إلا بالجعل كعقاب على أفعالهم التي أشبهت أفعال القرود والخنازير، والإسلام على الحقيقة قد سلَّح المسلمين بكل الأسلحة التي تنقض نظرية التطور وبكل جزئية من جزئياتها، وهكذا كان نجاة حتى السذج والبسطاء في المعرفة من الأوهام العلمية التي كُسيت بها هذه النظرية، ويا لها من سخرية ممن قال: إن آدم الجنة ليس هو الجسد البشري الذي يأكل الطعام ويمشي بالأسواق "[3]، فآدم الجنة برأيه روح لا جسد ولكن آدم الجنة ابتلي بما أكل من الشجرة ولهذا طرد منها، وبتحديد الله لآدم بأنه واحد، كانت هزيمة الفكرة التي تقول بالأوادم الكثر، وبتحول

---

[1] - المائدة: ٦٠

[2] - الأعراف: ٦٦

[3] - ص ١٧٤ مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام

الموضوع إلى موضوع عقائدي إسلامي، أصبح الإسلام كأعتى عقبة واجهها اليهود لإصلاح شأن توراتهم.

ـ القبور والدفن ودفن الأحياء مع الموتى:

لقد كان الإعتقاد بالبعث في معظم الحضارات القديمة قوياً جداً إلى حد انعدام التمييز بين الموت والحياة، واكتشاف قبور " أور " التي يرجع تاريخها إلى نحو ثلاثة آلاف سنة، تشهد باعتقادهم بالحياة الثانية، فقد وجدت كل الجثث في هذه القبور وإلى جانبها أدوات تستعمل في هذه الحياة الدنيا كالآلات الخزفية والآلات الثمينة والأسلحة كالخناجر وخوذ الذهب الخالص، وزنابير الفضة وآنية الطعام الذهبية، ومعدات التزيين والتبرج والحلي والآلات الموسيقية، وجثث الحيوانات، وجثث الحراس والخدم والجواري "[١]، ولقد تم الكشف على مدفن سومري يعود إلى سلالة " أور " الأولى لملكة أو كاهنة أسمها " يو – أبا "، حيث دفنت " في ضريح مقنطر تحت الأرض، حيث كانت مستلقية على مضجع خشبي مرتدية عباءة من خرز لازوردي أزرق ولباس رأس من أوراق ذهبية وأكاليل ودبابيس على شكل زهور. وقد حفر حول الضريح مكان عريض جلست فيه عشرات النساء من الحاشية والعازفات وما شابه ذلك "[٢]، " وعلى مدخل القبر وجدت جثث خمسة جنود وعشر خادمات، واحدة بيدها قيثارة

---

[١] ـ ص ١٦٢ تاريخ الحضارات العام: الشرق و اليونان القديمة

[٢] ـ ص ٨٧ المدن الأولى

وعربة يجرها حصانان، وفي غرفة ملحقة بالقبر وجدت ٥٩ جثة منهم ستة جنود وتسعة عشر خادمة وعربتان تجرها ستة ثيران، ومواد ثمينة أخرى "[١]، كل هؤلاء الناس قد رافقوا " يو – أبا " في قبرها وهم أحياء. وفي " أور " أيضاً " وُجد أن ستين قبراً ملكياً يعود تاريخها إلى عام ١٨٠٠ ق.م تضم أحياناً ستة من ضحايا القرابين البشرية، ولم يكونوا من العبيد ذوي الأصل الوضيع بل أناساً من الأشراف ممن يتحلون بالأردية والحلي الخاصة بذوي الرتب "[٢]، " وتذكر لنا بعض اللوحات الآشورية، أنه كان يجري عند دفن العاهل، دفن سيدة القصر معه "[٣]، وفي مصر القديمة زمان الأسرة الأولى كان الملوك " يدفنون العبيد "[٤] معهم وهم أحياء في قبورهم، وكبار الموظفين في تلك المرحلة فعلوا نفس الشيء " وإذ دفن " جعبي جفاي " من كبار موظفي الملك سنوسرا الأول، فضحى بالخدم حين دفنه"[٥]، وفي الصين بمقابر أسرة " شانغ " التي حكمت الصين بين عامي ١٥٢٢- ١٠٢٨ ق.م وُجد " الملك مدفوناً على مستوى دون مستوى أتباعه الذين دفنوا بكامل أسلحتهم وعدتهم في غرف تجمعت حول

[١] - ص ١٤٤ آثار الوطن العربي القديم
[٢] - ص ٢٠ مجلة الثقافة العالمية عـ١١ السنة الثانية ١٩٨٣
[٣] - ص ١٤٨ تاريخ الحضارات العام
[٤] - ص ٢١ مجلة الثقافة العالمية
[٥] - ص ٤٦ مجلة عالم الفكر عـ٣ ١٩٨٤

القبر الرئيسي "[1]، ومثل ذلك وجد في قبور ثمانية ملوك من ملوك تلك المرحلة، وفي الصين أيضاً يؤتى " بالنعش وقد لفوه بقماش أبيض، بموكب كبير، ينوح أفراده ويصرخون، وقد سار على رأسهم الساحر، ثم يأتي المشرف على القبور ليُنزل إلى جانب النعش في الحفرة الأشخاص الذين أعدوهم ليرافقوا المتوفى، ويكونون لهم خدماً، إذ يجب أن يحيى الميت في عالمه الجديد حياته العادية مع أسلحته وبلاطه وخدمه "[2]، وفي المكسيك ٥٠٠ – ١٠٠ ق.م " قبر شخص وجيه في مدفن خاص داخل هرم من الطوب ارتفاعه ٢٠ متراً، وقد وُضع حول الميت وعلى أطراف الضريح ٤٠٠ وعاء من الفخار واليشم، ولم تكن هناك أية أشياء إلى جانب ميت آخر في المدفن نفسه، وعلى الأرجح أنه قدم ضحية إلى القائد الجبار ليخدم سيده في العالم الآخر "[3]، وقد استمرت عادة دفن الأحياء مع الأسياد أو الملوك إلى عهد قريب جداً، ففي سنة ٣٠٩ هـ يصف لنا الرحالة ابن فضلان ما رآه في روسيا، يقول: " وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه: من منكم يموت معه؟ فيقول بعضهم: أنا. فإذا قال ذلك فقد وجب عليه، لا يستوي له أن يرجع أبداً، ولو أراد ذلك ما تُرك، وأكثر

---

[1] - ص ٢١ مجلة الثقافة العالمية عـ١١

[2] - ص ٥٩٦ تاريخ الحضارات العام

[3] - ص ١٦٢ المدن الأولى

من يفعل هذا الجواري "[1]، وعن طقوسهم لهذا الحدث يقول: " والجارية في كل يوم تشرب وتغني فرحة مستبشرة "، " والجارية التي تريد أن تُقتل ذاهبة وجائية، تدخل قبة من قبابهم، فيجامعها صاحب القبة ويقول لها: قولي لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك "[2]، وعن كيفية قتلها يقول: " وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يُسمع صوت صياحها، فيجزع غيرها من الجواري ولا يطلبن الموت مع مواليهن، ثم دخل إلى القبة ستة رجال، فجامعوا بأسرهم الجارية، ثم اضجعوها إلى جانب مولاها وأمسك إثنان برجليها وإثنان يديها، وجعلت العجوز التي تُسمى " ملك الموت " في عنقها حبلاً مخالفاً ودفعته إلى إثنين ليجذباه، وأقبلت ومعها خنجر عريض النصل، فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت "[3]، ثم تُحرق هي ومولاها في سفينة على النهر.

فالميت في اعتقادهم لا بد يحتاج إلى سلاحه ورجاله وخدمه حين يبعث إلى الحياة تارة أخرى، واعتقادهم بالحياة الآخرة لا بد مأخوذ عن الأنبياء الذين أولهم آدم، ولكن قصة ابنيه تشير إلى أن هذه العقيدة بما فيها

---

[1] - ص ١٨١ رسالة ابن فضلان
[2] - ص ١٨٣ نفسه
[3] - ص ١٨٥ نفسه

من جنة ونار وثواب وعقاب إنما لرفع الظلم في هذه الحياة، وردع الإنسان عن ارتكابه، وبمرور الزمن تم نسيان ما يعرف بمقاصد العقيدة وبقيت العقيدة دون مقاصدها، حتى أصبح ما يرافق الإعتقاد بالحياة الأخرى من أفدح المظالم، فالمظالم التي حدثت، إنما هي وليدة الإنحراف للعقائد الموروثة، سواء كان بفعل الذاكرة أو بفعل البدع.

- **إحراق الموتى:** خشية من عودة روح الميت إلى الجثة دفعاً لآذها المحتمل أو تيسيراً لانطلاقها إلى عالم الموتى، وتحريراً لها من كل متعلقات الجسد، كان إحراق جثث الموتى، ففي الهندوسية " تُحمل الجثة بعد الوفاة بقليل، إلى أرض المحرقة "[1] ثم تُحرق، " بينما يطوف أهل الميت حول المحرقة، باتجاه عكس عقارب الساعة، وفي اليوم الثالث لإحراقها تلقى العظام في النهر، والأفضل أن يكون نهر الكنج"[2]، وبتفصيل أكثر لوصف طقوس الجنازة: " يقومون باللباس وتزيين الميت، ثم يأتون به في موكب إلى حيث ستحرق جثته، إما محمولاً على الأكف، أو على عربة يشدون إليها غصن شجرة يمر على الأرض ليمحو آثار أرجل الأقرباء الذين يكونون قد تقدموا الجثة، وعندما يصلون إلى المكان

[1] - ص ١٤١ المعتقدات الدينية لدى الشعوب
[2] - ص ١٤٢ نفسه

المعين يجرون للميت ولآخر مرة أعمال التزيين والتنظيف ثم يضعونه فوق كومة الحطب، وتجلس امرأته بالقرب منه ثم يدعونها للنزول – وقد كانت تحرق معه في الأزمنة القديمة – ويضعون بجانب الجثة إشارات الفئة التي ينتمي إليها: قوس مكسور إن كان من أفراد الكشتريا، أدوات عبادة إن كان من البراهمة، وأخيراً يحرقون تيساً مع جثة الميت أو يضحون ببقرة، ويقومون في فترة الحزن التي تلي الجنازة بسلسلة من الأفعال التطهيرية: استحمام، صيام، زهد، ثم يجمعون العظام المحروقة ورماد الجثة ويطمرونها في حفرة تغطى بالأتربة أو الحجارة أو ببناء للذكرى، وهم لا يتناسون الأموات بل يقدمون لهم التقدمات اليومية "[١]، وفي كركميش وألالاخ في سوريا القديمة أصبحت عادة إحراق الموتى ثم دفنهم " مألوفة، وانتشرت على نطاق واسع بين الناس "[٢]، وهذه العادة بالطبع قد تم استيرادها من آسيا الصغرى.

التقدمات للموتى في الهندوسية من الأشياء الضرورية، وإلا فالويل والثبور وعظائم الأمور على الأحياء من أقاربهم والعكس بالعكس، " والنظرية الخاصة بـ" شراذا " هي أن يقدم الأحياء الطعام إلى الأسلاف

[١] - ص ٥٦٦ تاريخ الحضارات العام
[٢] - ص ١٤٥ الالاخ

الذين يقطنون "عالم الآباء " وذلك بأن يقدموا لهم قرابين من كرات الأرز والماء، بينما يضفي الآباء بالمقابل النعم على أحفادهم الأحياء، بمنحهم النجاح والإزدهار والذرية، وإلا قد تنقلب العلاقة رأساً على عقب إذا لم تؤد للميت الطقوس الجنائزية المناسبة "[١]، وبما يقدم للميت من طعام، تكتسب الروح جسداً رقيقاً يمكنها من القيام بالرحلة إلى عالم الآباء أو العالم الآخر.

- **قطع رؤوس الموتى ومدافن الفخار:** إن الإعتقاد بإمكانية الميت على إحداث الأذى بالأحياء دفعهم إلى الكثير من سبل تضليل الأرواح، بما أحدثوه على الجثث، لأنه لا فعل لهم إلا بها أو بواسطتها، ودفن الموتى في الجرار لم تكن إلا لهذا الغرض، فإن دفن الميت في جرة فهيهات للروح أن تصل إلى جثتها، ففي مملكة ماري الآشورية " كان الدفن يتم في حلل من الفخار أو في جرات كبيرة توضع عمودية مع ميل بسيط "[٢]، وقد كانت الطريقة الأكثر شيوعاً هي أن يوضع الأموات في توابيت من الفخار: جرتان كبيرتان توضعان الفوهة مقابل الفوهة، وكانت الجثة توضع إما بوضعية منكمشة أو بوضعية مثنية "[٣]، وقطع جماجم الموتى هو الآخر

[١] - ص ١٤١ المعتقدات الدينية لدى الشعوب
[٢] - ص ١٥٠ ماري
[٣] - ص ١٥٦ نفسه

لنفس الغرض، فإن قُطع الرأس فلا فعل للروح بالأشلاء، ففي مملكة " حلفا " القرن الخامس قبل الميلاد " دفنت الجماجم فقط بعد فصلها عن الجسد ووضعت في جرار كبيرة رافقتها آوان فخارية أخرى "[١]، فقد " دفنوا الجماجم مستقلة "[٢]، وفي أريحا " اكتشف ما يسمى بمستودع الجماجم "[٣]، وفي المريبيط وجد قبران، الأول فيه جمجمة أنثى، وأقسام من هيكلها العظمي، وفي القبر الثاني دفنت بقية الأجزاء الناقصة من هذا الهيكل وبينها اليدان والرجلان "، " وفي أبو هريرة، كُشف عن قبور فيها هياكل مختلفة لأجساد بلا رؤوس أو جماجم "[٤]، وحتى لا تدخل الروح إلى جثتها تارة أخرى يضع الصينيون " أثناء غسل جثة الميت في كل نوافذها حجراً صغيراً من اليشب "[٥]، وتيسيراً لخروج روح الميت من الجثة، يقوم اليوغيون " بكسر جمجمة اليوغي الميت، تسهيلاً لخروج روحه "[٦]، والأوروبيون اعتقدوا " أن روح الميت تخرج من المدخنة أو من السقف، وفي حالة الإحتضار الطويل يصار إلى نزع خشبة أو أكثر من السقف أو حتى يُكسر السقف كله ".

---

[١] - ص ٣١٧ عصور ما قبل التاريخ

[٢] - ص ٣٢١ نفسه

[٣] - ص ٢٥٢ نفسه

[٤] - ص ٢٥٥ نفسه

[٥] - ص ٥٩٦ تاريخ الحضارات العام

[٦] - ص ١٦٣ المقدس و الدنيوي

المعركة دامية بين الأحياء والأموات في الحضارات القديمة فالأحياء يخافون من فعل الأموات، ومن عامل الخوف هذا كان اتباعهم لسبيلين كما رأينا، إما تضليل روح الميت، وإما القيام بما يلزم لانطلاقه إلى عالم الموتى، ولكن على الأموات القدامى أن يقبلوه في عالمهم، عالم الأرواح، عالم اللاعودة، فإن قُبل استراح الأحياء من شره، ومن أجل هذا كان التكفين الطقسي والمراسم الجنائزية التي بها فقط يكون التأكيد على حدوث الموت، ومن دُفن دون ذلك فليس بميت أو غير مقبول في عالم الموتى، وفي أحيان كثيرة يقوم الساحر أو الشامان بقيادة الروح إلى عالم اللاعودة " حيث يقبله جماعة الموتى "[١]، وفي اليابان " ما تزال عملية الدفن المؤقت للموتى واسعة الإنتشار "[٢]، إنتظاراً للبرج الملائم للدفن النهائي، الذي به ضمان قبوله في عالم الموتى.

أما فراعنة مصر، ومن أجل الحياة بعد الموت بنوا الأهرامات العظيمة " فالهرم في جوهره قبر هائل يستهدف حفظ جثمان الملك من الناحية المادية والروحية على السواء"[٣]، ومن أجل الناحية المادية كان تحنيطهم لجثث ملوكهم، وقد حوى الهرم إضافة إلى جثة الميت كل ما يلزمه من

[١] - ص ١٧٣ نفسه
[٢] - ص ٧٦ علم التنجيم
[٣] - ص ٤٠ المعتقدات الدينية لدى الشعوب

الزينة والأسلحة والطعام، وبالأهرامات استهلك الفراعنة قدرات شعبهم، وقد ذكر هيرو دوتس أن بناء هرم خوفو الذي طول ضلع قاعدته ٢٣٠ م وارتفاعه ١٤٦,٥ م وحجمه ٢٥٢١٠٠ م٢، قد " استغرق عشرين سنة كاملة، بعد عشر سنوات مكرسة لأعمال التحضيرية وحدها "[١]، " أما الفقراء فلا غرابة في أن يكتفوا دائماً بالحفر الوضيعة كقبور لهم "[٢]، والفينيقيون هم أيضاً كانوا يزودون الميت بما يحتاج إليه في الحياة الأخرى، فقد كانت توضع مع الجثمان " كافة الرموز الملكية كالسيف المعقوف، والسلاح الملكي، والكثير من الحجارة الكريمة، والأثاث الثمين "[٣]، وفي " كريت "، توضع على مقربة من جثة الميت " أدواتها المألوفة وكل ما تحتاج إليه، وتخصص لها بعد ذلك التقدمات الغذائية وغيرها "[٤].

ملاحظة: يقول كريستان روبان: " ولا يمكننا إلا أن نقف مندهشين أمام الموقف المعاكس الذي اتخذه الإسلام، حتى لا نكاد نميز مقابرهم عن الأرض الجرداء "[٥]، هذا صحيح، فلا تمييز بين الموتى في مقابر المسلمين بين غني وفقير وبين حاكم ومحكوم، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

---

[١] - ص ١١٩ تاريخ الحضارات العام
[٢] - ص ١٢١ نفسه
[٣] - ص ٦٢ الديانات السورية القديمة
[٤] - ص ٢٤٥ تاريخ الحضارات العام
[٥] - ص ١١٢ أبحاث في الجزيرة العربية

" خير القبور الدوارس " ونهى عن البنيان فوقها، حتى لو كانت مساجد، وقال أيضاً: " لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد "، أما عن الخوف من الموتى، فقد بين الإسلام أنه لا فعل ولا عمل للموتى: " وإذا مات ابن آدم انقطع عمله.. "، بل بالعكس فالميت هو المحتاج إلى الأحياء، إلى دعائهم وثواب إحسانهم، وما هو بالمحتاج للأدوات أو الطعام والشراب والقرابين " فخير الزاد التقوى "، ولا هو بالمحتاج لهدايته لطريق اللاعودة أو إلى عالم الأرواح، فذاك من فعل الله الذي لا دخل فيه إلى كاهن أو ساحر، فالإسلام بحق هو المقوِّم للذاكرة التي اعوجت، وهو الإصلاح لما قبله من حضارات.

ـ اليوم الآخر والفكر الأسطوري:

اليوم الآخر، يوم الحساب والفصل بين الأخيار والأشرار في بدايته خبر و للذاكرة أن تستدعيه على الدوام، بملاحظة ما تراه من أحداث يومية أو شهرية أو فصلية في الطبيعة، فالقمر بأطواره ونموه وتناقصه وغيابه ثم عودته والشمس في بزوغها ومغيبها ثم عودتها، والثمار والمزروعات والزهور موتها ثم عودتها، والأحلام التي نرى فيها الموتى وكأنهم عادوا إلى الحياة مرة أخرى، كل ذلك كان عند البدائيين من البراهين المعتمدة لاعتقادهم بوجود العالم الآخر، بل وباعتقادهم هذا كانت الأساطير التي تم بها على سبيل المثال تفسيرهم للدورة الزراعية.

إن العالم الآخر، عالم الموتى، الأرض الهائلة، دار الأشباح، في بلاد ما بين النهرين " باعتباره عالماً سفلياً يقوم تحت عالمنا القائم بمسافة ليس بالبعيدة، ويشكل طبقة وسطى بين سطح الأرض ومياه الغمر الأولى، أطلق السومريون عليه أسم " كور " أو " كيجال " أي الأسفل العظيم "[١]، وإلى الأسفل تجري أرواح جميع الموتى " من فتحات في الأرض كتلك التي تشرق منها الشمس، أو التي تغرب منها، وأي قبر يصلح للنزول،

[١] ـ ص ٢٥٨ مغامرة العقل الأولى

وأول ما يهبط الزائر الجديد يصادفه نهر " هابور " نهر العالم السفلي، أو النهر الذي ملاحه " هامو طابال" ذو الأربعة رؤوس كرأس الطير أو " خارون "، فينقله في قاربه إلى الطرف الآخر، حيث بوابات مدينة الموتى "[١]، " ومن لم يدفع الأجر فعليه الإنتظار، وكان الأغريق يدفعون الأجر سلفاً قطعة نقدية تحت لسان الميت " أو فوق كل عين من عينيه قطعة نقدية.

ومدينة الموتى عالم حصين " خلف سبعة جدران عالية، وسبع بوابات حصينة عليها حراس غلاظ شداد، ما أن يقترب القادم من البوابة الأولى حتى يعلن البواب أسمه لتسمعه أريشكيجال ثم يقاد عبر البوابات السبع وعند كل بوابة يتخلى عن شيء من متاعه وملبسه وزينته، إلى أن يمثل عارياً أمام أريشكيجال وأعوانها السبع وهم كبار آلهة العالم الأسفل، لتقرير مصيره ومكانته في عالم الأموات "[٢]، والملاحظ أننا " لا نعثر على ميزان للعدالة في يد آلهة العالم السفلي أو في أيدي القضاة أعوان أريشكيجال "[٣]، ولو وُجد لقدم للناس عزاء عن قسوة الموت وظلمه وأعطى أملاً في الوصول إلى العدالة المطلقة التي لم تعرفها الأرض، وكما لا وجود

---

[١] - ص ٢٥٩ نفسه

[٢] - ص ٢٥٩ نفسه

[٣] - ص ٣٩ جذور الأستبداد

للميزان لمحاسبة الإنسان عما فعله في دنياه، اعتقدوا أن كل العقاب والثواب هو في هذه الدنيا، وكما كان الإنسان في دنياه هو في أخراه: " فمن يخشى الأنوناكي يمد في أيامه "، " إركع لآلهة مدينتك لتمنحك الخَلَف "، " الرجل الذي يشتهي زوجة جاره سوف يموت قبل أجله "، " التاجر الأمين، يُسرُّ به شمش ويطيل في حياته "، " ذرية الأشرار تمنى بالفشل "، " من يقوم على خدمة إلهه يكون له ملاك يحميه "، " المحتال يلاحقه السلاح الفتاك"، والإله عند الحثيين " يضرب بالمصيبة والمرض والموت جميع الذين يخالفون القوانين الإلهية أو القواعد الطقسية، بقصد أو دون قصد، إنه يضرب عاجلاً أو آجلاً لا المذنب فقط، بل ذريته وكل عائلته وعبيده ومشايته، وبالممارسات الشعائرية والقرابين يمكن إصلاح الخطأ مهما يكن شأنه، وهذا ما تشهد به أسطورة الحلم للأمير " كو مايا " الآشوري الذي كان تواقاً لرؤية العالم الأسفل، فأقام الصلوات وقدم القرابين إلى أرشيكيجال وزوجها " نرجال "، وتحقق له ما أراد " ونزل في الحلم إلى العالم الأسفل فرأى عظمته وعظمة آلهته المرعبة ولما استفاق مذعوراً من رؤياه، " أخذ يحثو التراب على رأسه، ويمضغه في فمه قائلاً لأهل آشور الذين تجمعوا حوله: أن يخشوا أرشيكيجال ونيرجال

ويفعلوا وفق أوامرهما "[1]. ولكن لا شيء في هذه الأسطورة إلا التركيب المرعب لآلهة العالم الأسفل، ولا شيء من أوامر الآلهة إلا لخدمتهم وتقديم القرابين لهم. ولما وقعت آلة جلجامش الموسيقية " الباكو " إلى العالم الأسفل من كوة في الأرض حزن وبكى عليها، حتى رق له قلب خادمه " أنكيدو " فوعده بالنزول إلى عالم الموتى لاستعادتها له، ولما عاد منه وصف لسيده أو صديقه الرعب الموجود هناك، كنهش الهوام للجثث، وغير ذلك، ولا نجاة من تلك الأهوال حسب ما عرف إلا بإنجاب سبعة أولاد والميت الذي لا تقدم له التقدمات فإنه يأكل الأقذار هناك، وتطبيق شعائر الدفن الصحيحة تخفف عنه الكثير من الويلات.

أما عن كيف أصبح نيرجال شريك مع أرشيكيجال في السيادة على عالم الظلام، عالم الموتى، فتقول الأسطورة، أقام الآلهة مأدبة، فأرسلت إليها أرشيكيجال وزيرها " نمتار " وبحضوره بينهم نهض الجميع لتحيته إلا " نيرجال " الذي استخف به، فغضبت أرشيكيجال وعقدت العزم على قتله، وبخوفه منها ذهب إلى أبيه " أيا " يطلب مساعدته، فسلحه بأربعة عشر عفريتاً، وبدخوله معهم إلى العالم الأسفل قبض على أرشيكيجال،

[1] - ص ٢٧١ مغامرة العقل الأولى

ولما أراد قتلها اقترحت عليه فكرة الزواج، فتزوجها وهكذا أصبح واحداً من آلهة العالم الأسفل.

- **العالم الآخر وتفسير الفصول أو الدورة الزراعية:** تقول الأسطورة الإغريقية: أن الإلهة " ديمتر " هي ربة الزراعة والمزروعات، ما يسقط ورقه وما لم يسقط، والإله " زيوس " الذي يمدها بالمطر، منحها ولدين: " برسيفوني وأخ لها، برسيفوني ربة كل نبات وشجر يسقط ورقه في الخريف، هاديس إله الموت خطف برسيفوني وتزوجها، فذبلت الحقول وتعرت الأشجار من أوراقها، فأسرعت أمها ديمتر إلى الإله زيوس عله يعيد ابنتها إلى الحياة، فتعاطف معها بشرط ألا تكون قد ذاقت شيئاً من الطعام في ترتاروس، ولكنها قد أكلت بالفعل ست حبات من رمانة، وبناء عليه " أعلن زيوس حكمه: بما أن الفتاة أكلت ست حبات من الرمانة، فيجب أن تمضي ستة أشهر في العالم السفلي مع هاديس "[١]. وبهذا كان تفسيرهم لاختفاء الزراعة أو موتها في فصلي الخريف والشتاء ثم عودتها إلى الحياة في الربيع والصيف، وبوجوه أخرى للأسطورة أن ديمتر أقسمت على إيقاف الزراعة طالما ابنتها عند هاديس حتى ساعدها زيوس وهرمس اللذان اتفقا مع هاديس على عودة ابنتها

---

[١] - ص ٣٧ ميثولوجيا الأبطال

للحياة، بعد أن اشترط عليهما عودة برسفوني إليه من كل عام ثلثه أي في فصل الجدب واختفاء أو موت المزروعات. وبوجه آخر أيضاً أن الإله الإغريقي " ديو نيسيوس "، إله الخصب والزراعة صاحب المذراة، قد مات، ولكنه عاد مع الربيع، وأسطورته تقول: الإلهة ديمتر تخبئ ابنتها بريسفوني في كهف، فجاء الإله زيوس وضاجعها، ومنه وضعت ديو نيسيوس، وسعت هيرا زوجة زيوس لقتل الغلام، فأرسلت التيتان، فتمكنوا منه فقتلوه وهو على هيئة ثور، وقطعوه إلى سبع قطع، ولكن أثينا استطاعت انقاذ قلبه، فأعطته لأبيه زيوس الذي قتل التيتان، ثم أعطى قلب الغلام إلى جدته " رحيا " التي أعادته إلى الحياة، فعاد حياً مع الربيع، وعادت الزهور تكسي الأرض والأوراق الخضراء للشجر. وأسطورة أخرى للإغريق: أن أم الإله أدونيس حولت نفسها إلى شجرة لما حملت به وبولادته أحبت الإلهة أفروديت إلهة الحب والجمال والخصب، ولما اضطرت أمه لغياب طويل، وضعته في صندوق أودعته عند بريسفوني إلهة العالم الأسفل، ولما فتحت بريسفوني الصندوق أعجبها الطفل فقررت الاحتفاظ به، ونشأ النزاع بينها وبين أمه، وبالإحتكام للآلهة، حكم أدونيس كبيرهم بأن تتقاسماه وذلك بأن يبقى نصف سنة في العالم الأسفل ونصفها الآخر مع أفروديت. وللفينيقيين وجه آخر من الأسطورة: بعل إله الأمطار

والسحاب، يموت، وفي الربيع يعود من عالم الموتى ليتزوج بإلهة الخصب عشتار، وعن هذا الزواج تعود الخضرة لتكسو وجه الأرض في الربيع. ولديهم أيضاً أن الإله " موت " إله الصيف والحصاد ونضج الثمار يطرد الإله " عليان " إله الينابيع ونبات الشتاء، مما يضطره للإختباء تحت الأرض في عالم الموتى، لكن بمساعدة الإلهة " عنات " إلهة الينابيع والإله " إيل " المسؤول عن النظام الطبيعي، يعود وينتصر على " موت " ويظهر في الخريف، وفي كل خريف من كل سنة، لتبدأ دورة الفصول من جديد. ولما كان للأراضي المحيطة بجبل الشيخ في سوريا دورة للخصب كل سبع سنوات، يليها القحط الذي قد يطول ويقصر، فقد وجدت عند الآراميين أسطورة لتفسير هذه الدورة، تقول الأسطورة: أن صراعاً على السلطة نشأ بين بعل إله الخصب والأمطار، والإله موت سيد العالم الأسفل إله القحط والجفاف، فأرسل موت تنينه للقضاء على بعل إلا أن بعل قتله، فغضب موت وقرر ابتلاع بعل وبناته بدرية وطلية وما له من غيوم ورياح، ليكون بعدها الجفاف وانقراض الحيوانات من الأرض، وخضع بعل لهذا الجبروت، ولكن قبل هبوطه إلى العالم الأسفل عالم اللاعودة، وحفاظاً على نسله، قام بمضاجعة العجلة سبع وسبعون مرة متوالية، ثم دخل عالم الموتى، وبموته جزعت زوجته عنات ولما عثرت على جثته،

صعدت بها أعالي جبل صفون " جبل الشيخ " حيث دفنته. ثم ذهبت إلى الإله موت عند منبع النهرين " الجزيرة اليوم " ولكن " عشيرة " زوجته التي فرحت بموت بعل، أرسلت ابنها " أثتر " ليجلس على عرشه في جبل الشيخ، ولكنه لم يستطع ملؤه، فاعترف بعجزه عن الحلول مكانه، فعاد من حيث أتى، وبكل ما للإلهة عنات من غضب اتجهت إلى موت وقطعته بالسيف والمذراة والمطحنة، وعاد بعل إلى ما كان عليه، وعاد موت في السنة السابعة ليصارع بعل تارة أخرى، وهكذا دواليك، أي: إن ما يحدث من قحط في محيط أراضي جبل الشيخ قد عجزت أرض الجزيرة عن تعويضه، ولا كفاية إلا بما تنتجه هذه الأراضي لأصحابها، ولا بد من الصبر على دورة القحط هذه. وعند السومريين أسطورة أخرى لتفسير غياب الخصب الذي تمثله الإلهة " أنانا "، أنانا طوعاً هبطت إلى العالم الأسفل وأوصت وزيرها " ننشبور "، الذهاب بعد ثلاثة أيام وثلاثة ليالي إلى الإلهة لطلب مساعدتهم إن اقتضى الأمر. عند بوابات الجحيم انتزع منها كل شاراتها: تاج السهول، الصولجان اللازوردي، الخاتم الذهبي، وكل ما عليها من زينة، ولما مثلت بين يدي أرشيكيجال، حولتها بكلمة واحدة إلى جثة هامدة، وبعد انقضاء المدة المتفق عليها هرع ننشبور إلى الآلهة، أنليل خذله، نانا خذلته، فمضى إلى " أريدو " حيث الإله أنكي،

فصنع له ماء وطعام الحياة، لرشها وإطعامها منه، فعادت حية، ولكن لا بد من بديل عنها، وللبحث عن البديل أرسلت أرشيكيجال العفاريت بصحبة أنانا ولما وقع نظرهم على ننشبور حاولوا أخذه، فرفضت أنانا، كما رفضت أن تعطيهم " لتراك " وأخذوا أخيراً " دموزي الراعي " فوافقتهم على أخذه، وبمحاولة الهرب قتلته العفاريت، وبعد أن انتصرت أنانا للراعي على الفلاح، وافقت على قتله فداء لها. وعند الأكاديين حيث نزلت عشتار إلهة الخصب إلى عالم الموتى، اضطجع الرجل وحيداً في غرفته، ونامت المرأة على جنبها، فلا اخصاب ولا إثمار، وبماء الحياة هي الأخرى عادت إلى الحياة هي وزوجها تموز الراعي، حيث يعتبر الراعي من علامات الخصب ورموزه.

وبالنتيجة إن هبوط آلهة الإخصاب إلى عالم الموتى، هبوط برسفوني، عليان بعل، أنانا، عشتار، كل ذلك للتعبير عن مآل العالم إن غاب عنه الخصب أو الآلهة المسؤولة عنه.

ملاحظة: فحيث وجد إله مات أو نزل إلى عالم الموتى ثم عاد إلى الحياة، فإنه يستدعي قرباناً بشرياً كغذاء له، أو لضمان استمرار الخصب، وهذا ما سوف نراه عند الحديث عن القرابين البشرية وتمثيل الأساطير لإعادتها إلى الحياة والحاضر تارة أخرى.

أما المصريون فقد اعتقدوا بالحياة بعد الموت وبالحساب، ولكنهم اختلفوا عبر تاريخهم الطويل مع اختلاف تجاربهم على مكان عالم الموتى، وقالوا: في السماء مع الكواكب والنجوم عند مغيب الشمس، في العالم الأسفل، وقد قالوا أيضاً بالنهر الفاصل بين الموتى والأحياء وبالزورق الذي ينقل ربانه الأموات إلى عالمهم لقاء أجر يحدده الكهنة، أما اللافت للنظر في هذه المسألة أنهم استخدموا الميزان لتقييم الموتى وحسابهم على أعمالهم، وربما احتفظت الذاكرة بهذه الفكرة عن يوسف وموسى عليهما السلام حيث كانا في مصر، " فكل إنسان بعد الموت سوف يواجه " بميزان القلب " أمام أوزوريس " والقضاة الإثنين والأربعين، وهناك العديد من الرسوم والنصوص التي تعالج هذه الفكرة، وتظهر كفتي الميزان، واحدة فيها رمز الإلهة " ماعت " ربة الحقيقة، التي وضعت النظام الأخلاقي للمصريين، وفي الكفة الثانية قلب المتوفى، فإذا استطاعت فضائله إحداث توازن مع كفة الحقيقة، فسوف يصدر الحكم لصالحه بالسعادة الأبدية وإلا فهناك وحش يسمى ملتهم الموتى، يقف منتظراً القضاء على الشخص المدان "[١]. ومن ابتهالاتهم: إيه يا قلبي، بل يا قلب أمي، لا تقف شاهداً ضدي، لا تجعل من وزنك حجة علي "، ولكن المصريين في ديانتهم

---

[١] - ص ٥٨ المعتقدات الدينية لدى الشعوب

شأنهم شأن كل ديانة استحوذ عليها الكهنة، وقد زعم كهنتهم أن التعاويذ التي يزودون بها الموتى كفيلة بنجاتهم يوم الحساب، وبالأجر " زودوا كل ميت، حتى المجرم بما يضمن له صدور الحكم لصالحه "[1]، واللافت للنظر أكثر أنه " في الميثولوجيا – الأساطير – الإيرانية، يُستعار جسر قِنوات لكي يعبره الأموات في رحلتهم بعد الموت، عرضه تسعة رماح للصالحين، لكنه يضيق على الفجار، حتى يصبح مثل حد السكين، وتحت الجسر ثقب عميق إلى جهنم، ومن سقط عن الجسر صار إليها، وفي التقاليد الفنلندية، يجتاز الجحيم جسر تغشَّته أبر ومسامير وشفار "[2] ومن لم يسقط عنه بفعل أعماله الصالحة، فقد وصل إلى الجنة أو دار النعيم.

ولكن هل ذهب محمد صلى الله عليه وسلم إلى إيران أو مصر أو فنلندا أم كان باحثاً أدمى نظره في الكتب ودراسة العقائد وقدميه في الأسفار والترحال حتى كانت له أمثال هذه الأفكار؟ والصواب أن ما لدى هذه الأقوام من شذرات، هي بالفعل شظايا مما قال به الأنبياء من قبل، فبقي مخزوناً في ذاكرتهم، حتى انحرف أخيراً عن أغراضه وطبيعته والسياق الذي وجد فيه، فالأنبياء أولهم وآخرهم في العقائد سواء " و**إن من أمة إلا**

---

[1] - ص ١٠٤ تاريخ الحضارات العام

[2] - ص ١٧٠ المقدس و الدنيوي

خلا فيها نذير "، فوجود العالم الآخر، بعث الإنسان تارة أخرى لمحاسبته على أعماله في دنياه، الميزان، الصراط، الجنة، النار، الخلود، كل ذلك قال به الأنبياء ابتداء من آدم إنتهاء بمحمد آخرهم.

ـ القرآن وطبيعة الأساطير:

الأسطورة لغة من سَطَرَ، والسطر الخط والكتابة، وسطَّرها ألَّفها، والأساطير: الأباطيل أو أحاديث لا نظام لها، وسطَّر فلان على فلان إذا زخرف له الأقاويل ونمقها، وتلك الأقاويل هي الأساطير، وواحدتها أسطورة، والقرآن ذكر " **أساطير الأولين** " تسع مرات في تسع آيات، فإن رأوا آية من آيات النبوة "[١]، وإذا سمعوا القرآن "[٢]، وإن سئلوا عما أُنزل على محمد "[٣]، وإذا قيل لهم بالبعث "[٤]، قالوا عن هذا كله: " إن هذا إلا أساطير الأولين " وقال الذين كفروا إن هذا إلا أفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً، وقالوا أساطير الأولين أكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا "[٥]. وقد قال بعضهم أن لفظة " أسطورة " العربية مأخوذة من لفظة " هيستوريا " أو " إستوريا " اليونانية، وتعني تاريخ "[٦]، وحتى اشتقاق الأسطورة من " سطر " بالعربية زعموا أن سطر هي

---

[١] ـ الأنعام: ٢٥ , القلم:١٥ , المطففين: ١٣
[٢] ـ الأنفال: ٣١
[٣] ـ النحل: ٢٤
[٤] ـ المؤمنون: ٨٢ ــ ٨٣ , النمل: ٦٧ ــ ٦٨ , الأحقاف: ١٧
[٥] ـ الفرقان: ٤ ــ ٥
[٦] ـ ص ٥ مجلة المعرفة السورية عـ١٣٣ ١٩٩١. ص ٦٨ عـ ٢٣٧ عالم المعرفة

" شطر " في البابلية وتعني كتابة التاريخ المقدس، ولكن ما معنى شطر في العربية طالما هي موجودة فيها؟!

ومما مر معنا نجد أن تعريف الأسطورة قد حوى عدداً من العناصر الرئيسية في بنيتها، سواء بالمضمون أو بالشكل، فمن حيث هي قول منمق، نجد أن الذين دونوها هم الشعراء، " فالأسطورة قول شعري "، وأول من دونها هو الشاعر اليوناني هوميروس الذي عاش قبل ميلاد المسيح بألف عام ويليه الشاعر هزيود، ثم الشاعر الغنائي بيندار الطيبي في القرن السادس قبل الميلاد، والشاعر الروماني " أوفيد " إبان عصر أغسطس ٦٣ ق.م، الذي لم يكن في مقدور أي كاتب قديم أن يبذه أو يجاريه في هذا المضمار "[١]، " والأساطير البابلية القديمة التي بدأ جمعها ونسخها منذ عهد حمورابي تعد الأساس الأدبي لبلاد الرافدين "[٢]، وربما لاقتران الشعر بالأساطير أو الباطل " طرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته "[٣]. وبالتشويق الأدبي وبما في الأساطير من غرائب الأخبار استخدمها كفار مكة كأمضى سلاح في محاربة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان أبا قائد أو أبا قتيلة، النظر ابن الحارث بن كلدة قد تعرَّف في أسفاره إلى الحيرة

[١] - ص ٢٩ الآثار الكلاسيكية
[٢] - ص ٢١٧ معالم حضارات العالم القديم
[٣] - ص ٢٦ المدينة الفاضلة عبر التاريخ

على قصص ملوك الفرس وأساطيرهم، فإذا ما فرغ النبي من حديثه، خلَّفه " النظر " محدثاً القوم عن تلك القصص والأساطير، ثم يختم حديثه بقوله: " والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما أحاديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها "[١]. وكذبه الله في كتابه، ولما أُسر في بدر قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأمر من الرسول ص.

الأسطورة هي ما سطره الأقدمون عما كان ينتقل شفاهاً عند أسلافهم القدماء، ولهذا تم نعتها بـ" أساطير الأولين " فالأولين قد تعني الأولين قبل التسطير أو قبل التدوين أو الكتابة، وقد تعني الذين سطروها أو كتبوها وإني أرى أن الأول هو الأرجح بينهما طالما قرنت الأساطير بالعقائد، وليس لمن دونها أن يأتي بعقائد جديدة غير مألوفة للذاكرة.

أما المضمون، فالأسطورة تمثل الوعاء الحاوي لما كان معتقداً عند القدماء، وبالأساطير زعموا الوحي عن الآلهة، حتى قارن أنثروبولوجيو البيئة النبوية، ما كان يوحى إلى محمد ص بالوحي الذي تزعمه الأساطير، والذين أنكروا الإعتقاد بالبعث أنكروه لأنهم اعتبروه من جنس الأباطيل التي ضمتها الأساطير، وإذا رأوا معجزة عن النبوة أنكروها بحجة

[١] - ص ٣٩١ مجلة عالم الفكر عـ٤

الأساطير التي زعمت كل عجيبة من عجائب المعجزات. فالأسطورة إذاً شعر حوى ما كان في الذاكرة من عقائد الأولين.

- نظريات نشوء الأساطير:

الأساطير وطالما انتقلت إلى التدوين شفاهاً عن الأولين فهي مجهولة المؤلف، وليس من مؤلف تنسب له، وهذا أمر لا خلاف عليه، ولكن من أين جاء وعلى أي شيء اعتمد ذاك الفكر الذي قام بصياغة الأساطير؟ وهناك عند الباحثين ستة نظريات تفسيرية لهذا الشأن:

١ – **نظرية الكتب المقدسة:** تقول هذه النظرية: أن الأساطير قد نسجت على منوال ما جاء في الكتب المقدسة وتحديداً التوراة ومن تداخل الحضارات وبفعل الزمن، كانت الفوارق بينهما في المضمون أو الأسماء، وبشيء من الجهد يمكن الكشف عن حقيقة ذلك النسب، فديكاليون مثلاً هو أسم آخر لنوح، وهرقل أسم آخر لشمشون، والتنين حارس التفاحات الذهبية في أسطورة هرقل، هو الحية التي أغوت حواء حتى أكلت التفاحة. ولكن هذه النظرية بقدر ما فيها من صواب بقدر ما فيها من خطأ، لأن التوراة هي الأخرى قد تم تدوينها عن الذاكرة مع بعض شذرات حقيقة عن واقع الأنبياء في عقائدهم وتاريخهم، وحيث كان اليهود في مرحلة من مراحل التدوين تحت السبي في بابل، فقد أثروا وتأثروا بالبيئة الجديدة، وطالما أحداث التوراة كانت قبل تدوينها، فاليهود وكل الوثنين كانوا سواء في اعتمادهم على الذاكرة، وإذا كان اختلاف الأسم ليس بالمهم من حيث

هو جزئية صغيرة أمام الحدث، فمن الممكن أن نوح هو ديكاليون وفيما بعد " زيوسودورا " السومري أو " أوتنبشتايم " البابلي، فالتعدد المذكور بالأسماء المتعددة، شهادة لا غنى عنها على وقوع الحدث الكبير الذي هو الطوفان كخبر معلوم عن نوح النبي الأول المذكور بعد آدم، أي هو الأقدم مقارنة بكل ما ذكر في الأساطير من أبطال الطوفان.

٢ – النظرية الطبيعية: لقد اعتقد البدائيون بحيوية الظواهر الطبيعية، وكل ظاهرة هي كائن حي يتمتع بالعقل والإرادة كالإنسان تماماً، وبعظمة الظواهر مقارنة بضعفه نعتها بالألوهية، وبالألوهية كان له تفسير الطبيعة أو ظواهرها، وكل الأساطير في بنيتها الداخلية وأغراضها قد حدثتنا عن كيف حصلت هذه الظاهرة أو الإله إلى الوجود، والإنسان بالطبع مقياسهم في كل شيء، وبالتزاوج بين الآلهة والصراع فيما بينهم كان لهم أهم أدوات التفسير التي ضمتها الأساطير، أي: أنه من أجل تفسير ظواهر الطبيعة كانت الأساطير، هذا صحيح، ولكن ليست الأساطير لتفسير وجود الظواهر فقط، فمنها ما هو لأغراض تربوية أو عقائدية وإلى ما هنالك، فمهام الأسطورة وأغراضها كثيرة ومتنوعة ومن التجني حصر وجودها بغرض دون غيره.

٣ – النظرية التاريخية: تعتمد هذه النظرية على مبدأ عبادة أو تأليه القدماء للملوك والأبطال، وبالقياس زعم أصحابها أن كل الآلهة أو الشخصيات المذكورة في الأساطير إنما هي لأبطال وملوك تم تأليههم بواسطة الأساطير، والأساطير إنما وجدت لهذا الغرض، بل وكثيراً ما أرشدتنا الأساطير إلى وقائع كثيرة تم التأكد من وقوعها ووجودها في التاريخ، وهذا أيضاً صحيح ولكن على نطاق أضيق من أن يتسع ليشمل منشأ كل الأساطير.

٤ – النظرية الرمزية: الأسطورة عند أصحاب هذه النظرية وجدت للتعبير عن الحقائق الحياتية أو الدينية أو الأخلاقية أو الفلسفية بطريقة رمزية أو مجازية، ومع الزمن نُسي الرمز وأخذت على ظاهرها، فإن كرونوس الذي يلتهم أطفاله، هو رمز للزمن الذي يلتهم كل شيء، وغياب برسفوتي في عالم الموتى، إنما هو رمز على الجفاف، ولكن هل لأحد مهما تكن ملكاته الذهنية فذة وعظيمة القدرة على إيجاد الرمز لكل ما قالت به الأساطير؟ بعض الأساطير قد نفهمها على أساس رمزي، ولكن تبعاً لثقافتنا، أما أصحاب الأساطير، فهي حقيقة وواقع لا حاجة له إلا اللف والدوران والتأويل، وهب أنها رمزية، فكيف ينسجم هذا مع ما قدموه من قرابين بشرية لإعادة ما كان في عالم البدايات أو زمان الخلق، وكما ضحى

الإله أو الإلهة بنفسه، فعلى الإنسان أن يفعل فعله، فأين هذا من الرمز؟ بل بالعكس فكلما مر الزمان وابتعد عن البدايات كلما اتجهت القرابين إلى البدائل اللابشرية، أي: أن الرمز استخدم لتبرير انعدام التقوى عند المتأخرين، لا أن الرمز كان غاية الأساطير عند الأقدمين، وإن قلنا بالرمز على الأطلاق فهو النفي لموضوعات الأساطير، وهذا أمر لا يعقل.

٥ – النظرية النفسية: الأسطورة عند بعض علماء النفس هي التعبير الأمثل عن المكبوت النفسي أو اللاوعي عند الإنسان، فهي حلم يعبر اللاوعي عنه بالرمز، فالأساطير وجدت لهذا التعبير، والبدائيون بالتالي، وطالما أصبحوا الموئل والمنبع لنظريات علم النفس الحديث، هم الأعلى مكانة من علماء النفس المعاصرين وإلا فلا بد من الإتكاء على التأويل، وبالتأويل نكون قد أصبحنا نحن من صناع الأساطير.

٦ – النظرية الوظيفية: الأسطورة حسب ما يرى أصحاب هذه النظرية إنما وجدت لتوظيفها في تحقيق أغراض كثيرة، كترسيخ لفضائل مرغوب فيها، أو لإعتقاد ما، أو لتفسير معرفي لظاهرة من الظواهر أو لحماية الكهنة والملوك، والدور الوظيفي هذا لا يمكن بالفعل فصله عن بنية الأسطورة ومقاصدها.

ولكن هذه النظريات أو المدارس، هي برأيي كزمرة المكفوفين لما قصدوا التعرف على الجمل بأيديهم، حتى اختلفت أوصافهم له باختلاف المكان الذي أصبحت عليه يد كل واحد منهم، والحقيقة أن ما انقسمت عليه تلك المدارس أو المذاهب ليس إلا انقسامهم تبعاً لوجوهها المتعددة، وليس لوجه فرد أن يعبر عن كلها، فبعضها عن ذاكرة لحدث قد وقع في الماضي، وبعضها عن اعتقاد بحيوية الكون وألوهية الظواهر، وبعضها استخدم كرمز يؤدي للدلالة إلى المطلوب، وبعضها عكس بالفعل ما كان عليه الملوك من تأليه، وبعضها صيغ لتحقيق غرض ما، عقائدي أو اجتماعي أو معرفي.

- **الأسطورة والحكاية الخرافية:** الأسطورة عند أصحابها مقدسة، والإعتقاد بما حوته واجب، وتنفيذ ما أمرت به إيمان، مقدسة لروايتها تاريخ الآلهة والأبطال وأنصاف الآلهة وأفعالهم، مقدسة لأنها السبيل المعرفي لكيف بدأ الخلق وكيف وجد، ومن حيث هي مقدسة فإنها تنفع للشفاء إن تُليت على المرضى، ومن أجل الخير أو الخصب وضمان استمراره، يعاد تمثيلها في الأعياد والمواسم من كل عام، وهي أخيراً مقدسة بنشأتها، فهي برأيهم إما عن الوحي والرؤية وإما عن الآلهة التي روتها للبشر. أما الحكاية الخرافية أو الحكاية الشعبية، فلا دور فيها للآلهة

والشعر " فهي حكاية عادية مليئة بالأحداث المبالغ فيها، والخوارق التي يقوم بها أبطال من البشر أو الجن، أما مواضيعها فهي الحياة اليومية، والأمور الدنيوية العادية، ولا تُروى إلا للتسلية وتمضية الوقت "[١]، كالحكايات التي تروى عن مكر النساء ومكائد الزوجات وإلى ما هنالك وهي بمصدرها " من صنع الخيال "[٢] واحتمالات السلوك.

ـ سمات الأسطورة:

إن للأسطورة سمات لا بد منها حتى يتحقق معناها، وهي كما يلي:

١ ـ الأسطورة كالحلم في طبيعتها ومصدرها: في الحلم قد نرى إنساناً يطير أو إنساناً برأس ثور، أو متعدد الرؤوس، وقد نرى حيوانات تتكلم، وبحر يأمر، ونهر ينهى، وقد نرى أمواتاً نخشاهم أو نفرح برؤيتهم، فليس للحلم من قيود لهوية ما نراه، ولا تعاقب زمني يتبعه، إنه فوق الزمان، فوق المعقول، وكل رصيده خيال يطغى على المخزون في الذاكرة ليصنع منه ما يشاء وكيف شاء، والأسطورة في صياغتها حلم يتلى أو يكتب، ولن تكون إلى الوجود إلا أن تحرر مؤلفها من المكان والزمان وهوية الأشياء، فالرعد والسماء والأرض والشمس والقمر، كائنات حية تعقل وتُدرك ولها

---

[١] ـ ص ٤٤ مجلة المعرفة السوري عـ١٣٣ ١٩٩١

[٢] ـ ص ٨٨ تاريخ سورية الحضاري القديم

غاياتها وأهدافها وغضبها، إنها الآلهة، فكيف لا؟ وها هي نراها في أحلامنا تتكلم وتعقل، وعلى حيثيات تقديس الحلم وما يكون عنه ولتقديس ما قد يؤدي إلى طبيعته، أصبح المخدِّر والمسكر على جلال ما بعده جلال " ولهذا كان الخشخاش رمزاً لكثير من الآلهة عند " الأزتيك في أمريكا الوسط "[١]، والإلهة ديمتر وإلهة كريت في بلاد النهرين قد حملت كل واحدة منهما باقة من الخشخاش، وكهنة سومر اعتمدوا الفطر المخدر وسيلة لتحصيل الرحلات الروحية إلى عالم الآلهة، والإلهة أنانا السومرية كانت تدعى بإلهة الخمر وديونيسيوس هو إله الخمر عند اليونان. وإن عُلم مؤلف ما لأسطورة ما فلا بد من الإستعانة بالحلم لربطها بالآلهة، فملحمة " إيرا " البابلية، التي بشرت بزوال الطاعون لزوال الغضب عن إله الدمار والأوبئة ذكر مؤلفها أسمه ثم زعم " أنها أوحيت إليه في الحلم "[٢].

٢ – الأسطورة وسيلة معرفة وتفسير: الأسطورة ليست قصة تروى للمتعة الأدبية والفنية، بل أن الأدب والفن الذي ترتديه ليس إلا لجعلها مقبولة وسهلة على الحفظ، فالمعرفة هي موضوعها الأساس، فإن تحدثت عن الطبيعة فهو الحديث عن الآلهة، وبإدراك قصص الآلهة وتاريخهم

---

[١] - ص ٢٥٤ لغز عشتار
[٢] - ص ٤٣ جذور الأستبداد

وكيف وُجد هذا الإله أو ذاك هو نفسه المعرفة بالطبيعة أو بظاهراتها، فإن أردت معرفة وجود ظاهرة ما أو كيف جاءت إلى الوجود فما عليك إلا البحث عن أي إله هو والدها، وأي إلهة هي أمها، وليس من شيء وُجد أو خلق إلا عن الزواج بين الإلهة أو غضب الآلهة ورضاها وإلى ما هنالك، فسِير الآلهة وتاريخهم هو التاريخ لخلق الأشياء إلى الوجود، والمنهج المعرفي للأساطير محكوم دوماً بمبادئ لا غنى له عنها، منها قانون التشابه، ومساواة الجزء بالكل، وإحيائية الوجود، أما كيف يكون تسخير الظاهرات لصالح الإنسان طالما هي إلهة، إنها القرابين والعبادة وإقامة الطقوس على وجهها الصحيح، " فالقيام بالطقوس المناسبة بالإضافة إلى التعويذة المناسبة سوف يؤدي حتماً إلى إحداث النتائج المرغوبة "[1] أو المرجوة، " ولدى معرفة الإنسان بالأسطورة، فإنه يعرف في الآن ذاته، أصل الأشياء، ليتمكن بالنتيجة من السيطرة عليها، ومن تنظيمها حسب مشيئته "[2]. ونظراً لخطورة هذه المعرفة التي بواسطتها يتم تسخير الآلهة، جعلوا رواية الأساطير وتلاوتها من الأسرار التي لا يجوز لغير الكهنة القيام بها، أو الإستماع إليها، فليس يصح تلاوتها أمام جميع الناس، أمام

[1] - ص ٢٣ الدولة و الأسطورة
[2] - ص ٢٧ ملامح من الأسطورة

الأطفال وفي حضرة النساء، وليس هذا إلا للمؤهلين من سلك الكهنوت الذين لهم العلم بأسرار العقيدة.

٣ ـ آلهة الأساطير متعددة: وليس من أسطورة على معنى التوحيد ولو حدث هذا فهو موتها، فكيف لها القيام دون تعدد الآلهة، وهي التاريخ للعلاقات من خلال التعدد، فليس يعقل للإنسان الرضا بجهل ما حوله، ولهذا رضي بالأساطير التي زودته بشبه المعرفة أو وهمها، عن إشغال عقله، ولما تم إغلاق باب المعرفة عن طريق تعدد الآلهة في الأساطير عندها لا سبيل للمعرفة إلا عن طريق العقل، فالعقل والأساطير لا يلتقيان، ومن المحال اللقاء بين التوحيد وتعدد الآلهة.

٤ ـ لا خلق في الأساطير إلا عن موجود: الخلق من العدم في الفكر الأسطوري غير موجود ولا يمكن تصوره، فإما عن إله تمت التضحية به، أو تم قتله وإما عن طريق الزواج والتناسل بين الآلهة، فكما لا جديد بشري عند البشر إلا بالتوالد، أيضاً لا وجود ولا خلق لظاهرة من الظواهر إلا بالتوالد والتناسل.

٥ ـ آلهة الأساطير غير جديرة لأن تكون قدوة خلقية للبشر: فكيف تكون قدوة للبشر وهي مصنوعة بالأساس على صفات بشرية؟ بما للبشر من صفات حسنة وسيئة، فالآلهة تكذب وتتآمر، تقتل، تزني وتغتصب،

تسرق وتحتال، تسكر وتعربد، وتتصارع فيما بينها على كثير من التوافه، والنظرة الصواب: أنه من أخلاق الآلهة يكون تعرفنا على أخلاق الذين قاموا بصياغتها، ولو تصور البقر، كما قيل: آلهة لهم لجاءت تصوراتهم على صورهم وأخلاقهم.

٦ ـ **لا حياة للأسطورة دون كهنة:** الكاهن أو الشامان موجود منذ القدم، وهو بالأساس ذلك الإنسان الذي رقَّت نفسه لدرجة كف الحواس عن فعلها، وهذا شأن فطري أو كسبي عن طريق الرياضات، فهم والشعراء على نفس الجبلة، فليس صدفة أن تكون الأساطير شعراً وبتوسع دائرة الكهانة في الأديان القديمة أصبحت الأسطورة إحدى وسائلهم الهامة في تحصيل أرزاقهم، التي منها: القرابين، وشفاء المرضى بتلاوتها، وتأمين الخصب والدفن الطقسي، وإرسال أرواح الموتى إلى عالمهم لكف شرهم، وتخليص الميت من العذاب في عالم اللاعودة، كل ذلك بالأجر، ومن أجل المنفعة أو الأجر، كان حفاظهم على بقائها مقدسة بكافة السبل المتاحة.

٧ ـ **لا قيمة للإنسان في الأساطير:** ويتجلى هذا في جعله عبداً لظواهر الطبيعة التي هو أعظم قيمة وكرامة منها، في جعله خادماً للآلهة في تأمين طعامهم وشرابهم، في تقديمه قرباناً على مذبحهم، وسواء في

منشئه أو خلقه ومهامه فهو الكائن الأدنى الذي لا فرق بينه وبين الحيوانات.

ـ الأساطير والنسب الأمومي:

المناصرون للنسب الأمومي، مقاتلون أشداء، وعلى الدوام لا تراهم إلا على الصراخ والزئير وهم بزعمهم الذين انتصروا للمرأة كإنسانة حرة وذات إرادة، وها هو التاريخ وما قبل التاريخ يقول: " لقد برزت أسبقية النسب الأمومي على النسب الأبوي "[١]، وبناء عليه " فلا يمكن اعتبار السلطة الأبوية نقطة الإنطلاق "[٢]، " ومنذ أن اعتدل جسد الإنسان منسلخاً عن شكله النياندرتالي للقامة المنحنية كانت عشتار.. الأم الكبرى إلهة له "[٣]، فعشتار إلهة آدم، طالما لا آدم قبل الإنسان العاقل، أي: إن التجمع الإنساني الأول لم يؤسس بقيادة الرجل "[٤]، وللمرأة الفضل الأول في اكتشاف الزراعة، ومما يعنيه اقتران الزراعة بالخصب وطالما هي الممثل الأعظم له، كانت القيادة والعبادة لها، ومنذ العصر الباليوليتي ٣٠٠٠٠ ــ ١٠٠٠٠ ق.م كان تصور الألوهية فيه أنثوي، " وكانت المرأة هي إلهة العصر الباليوليتي ومطلع العصر النيوليتي " دون منافس، وكل امرأة وكل تمثال وصورة لها هو لعشتار، حتى حواء، حتى مريم العذراء،

[١] ـ ص ١١١ في السلطة
[٢] ـ ص ١١٣ نفسه
[٣] ـ ص ٤١ لغز عشتار
[٤] ـ ص ٣٢ نفسه

هي عشتار ! ولو تركنا جانباً منطق الأحلام أو الخيال، لرأينا أن النسب الأمومي لم يكن إلا من باب التكيف البشري لاستمرار البقاء، والباحث برتران دوجفنيل، يقول:" ولا يوجد ما يثبت أن النسب الأمومي سبق دائماً النسب الأبوي "[١]، فالنسب الأمومي استثناء، وتفشي الحرية الجنسية هو أحدها " ففي التجمعات السحيقة للبشر كانت العلاقات الجنسية حرة تماماً دون ضابط أو قانون، وكل امرأة لكل رجل، وكل رجل لكل امرأة... وحيث لا يمكن معرفة والد الطفل لهذه التجمعات نسبوا الأولاد لأمهاتهم دون آبائهم "[٢]، أي: لولا هذا المرض ما كان ذاك النسب، وجهل العلاقة بين الأم والجنين هو الآخر سبب من الأسباب التي أدت إلى النسب الأمومي، فقد اعتقد البدائيون مثلا " بأن الأم والطفل يتقاسمان دماً واحداً فذهبوا بتفكيرهم إلى أن هذا الدم يخص أسرة الأم "[٣] لا الأب أو أسرته، ولكن سرعان ما ينقشع الجهل، وتتغير الظروف، ففي بداية عصر الزراعة، وحيث تم إدراك القاسم المشترك الذي هو الخصب بين المرأة والزراعة، كانت الآلهة الفاعلة من النساء، " ومع ضرورة الأعمال العظيمة كالسدود والترع والطرق للزراعة كانت تتراجع قيمة النساء

[١] - ص ١٢٧ في السلطة
[٢] - ص ٣٥ لغز عشتار
[٣] - ص ٣١ الشعوب و البلدان

ليتفوق الرجل تارة أخرى، من حيث أنه الأقوى، وبدأت الآلهة المذكرة تفرض أمجادها "[1] من جديد، ومن الملاحظ أيضاً أنه في بداية العهد الزراعي في بلاد ما بين النهرين " كانت الآلهة والآلهات يناقشون الأمور معاً في المجلس السماوي، ولكن هذه الظاهرة الخاصة بمرحلة سيادة الأم تلاشت مبكراً، ففي الألف الثالثة ق.م أصبح يشترك في المجالس الشعبية الرجال المحاربون فقط "[2] دون النساء، وأسطورة تسمية " أثينا " عند الأغريق، قد مثلت لنا الصراع بين الإستثناء الأمومي والنسب الأبوي وسلطته، تقول الأسطورة: قبل أن سميت مدينة أثينا باسمها، خرجت من باطن الأرض شجرة زيتون كبيرة، ونبع ماء غزير في ليلة واحدة، وطلب الملك من عرافة دلفي تأويلهما له ليعرف ما تريده الآلهة، فكان جوابها: أن شجرة الزيتون هي الإلهة أثينا، ونبع الماء هو بوسيدون، فبأي منهما تريدون أن تسموا المدينة فلكم ذلك، وبالأكثرية التي للنساء كان إطلاق أسم أثينا على المدينة، فغضب الإله بوسيدون، ولإرضائه فرض الملك ثلاث عقوبات على النساء، حرمانهن من التصويت، وبطلان انتساب الولد إلى أمه، والحجر عليهن من التلقب بالآثينيات، ومن الملاحظ في هذه الأسطورة أن الوضع الإستثنائي لنقص الرجال جراء الحروب قد أدى إلى

[1] - ص ١٧ معالم حضارات العالم القديم
[2] - ص ١٤٢ نفسه

التفوق العددي للنساء الذي به سيطرن على القرار. وأسطورة الأمازونيات، تقول: الأمازونيات كن قبيلة محاربة من النساء، يعبدن الإلهة أرتميس، وكن إن أردن النكاح أو الإنجاب ذهبن وضاجعن الرجال في البلاد المجاورة، حتى إذا وضعن قتلن الذكور، وعلموا بناتهن فنون الحرب وكره الرجال، وكن يقطعن النهد الأيمن لاكتساب المهارة في استخدام القوس بسهولة، ولكن هرقل كرمز للرجال قاتلهن وحده وانتصر عليهن، وقتل ملكتهن، وكذلك فعل ثيسيوس في أسطورة أخرى. والمستفاد من الأسطورة: أن مملكة من النساء لا تعادل رجلاً واحداً وإن طلبن حمل السلاح والحرب، فهو التشويه لهن، والبتر لأنوثتهن مصدر الخصب، وإن طلبن الإنفصال عن الرجال فهن مرغمات بغرائزهن، وها هي الطبيعة وأمام إصرارهن قد دفعتهن لقتل أولادهن، وبالقتل لا أمومة، ولا نسب أمومي، ومن ثم فلا رمز بالمرأة إلى الخصب إن انفصلت عن الرجل صاحب الإخصاب.

الزعم بأن المجتمع الأول للبشر كان أمومياً فهذا زعم ظني لا سند له من الحقيقة، وما قولهم بالعاقل الذي هو آدم بعد القرد إلا أسطورة مستحدثة، والنسب الأساسي كما قلنا من قبل إنما للأب من قوله تعالى: "

ابني آدم "، وبما مر من إستثناءات ظرفية فيما بعد، تراوح النسب بين الأب والأم، حتى كان الإستقرار على النسب الأبوي تارة أخرى.

ـ الأساطير وخلق الإنسان:

السومريون قالوا في أساطيرهم بخلق الإنسان بتكثيف الطين، والإغريق نسبوا إلى الإله برمثيوس خلقه من تراب وماء، وأن الإلهة أثينا نفخت فيه الروح لما استوى قائماً، والبابليون زعموا بأن الإلهة نمناخ خلقت الإنسان من التراب الذي يعلو أبسو " المياه الأولى أو الأعماق "، كما قالوا بمصدر آخر كمادة أولى لخلق الإنسان. وحسب أسطورة إينوماايليش، أن الإله مردوخ صنعه من دم الإله كينغو انتقاماً منه، حيث حرَّض الإلهة " تعامت "عليه من قبل، وفي نص آخر أن الإله أنكي أمر بذبح أحد الآلهة لجعله مادة أولى لخلق الإنسان، ومن لحمه ودمه عجنت الإلهة " ننتو " طينته، وفي رواية أخرى أن كبار الآلهة آنو وأنليل وإيا، قرروا ذبح بعض آلهة اللامجا، آلهة الحِرف، وهم من صغار الآلهة، ليصنعوا الإنسان من دمائهم، وهكذا خُلق أوليجار أي آدم، وألجار أي حواء.

أما لم خلقت الآلهة الإنسان؟ فقد خلقته كما تقول الأساطير لتأمين ما يلزم للآلهة من طعام وشراب، بعد أن كدهم التعب في تأمين أرزاقهم، أو

قل: ليحمل عبء كدح الآلهة "[1]، فطلباً للراحة وشعوراً بالعوز كان اقتراحهم لخلقه، حيث عجز " لهار " إله الماشية و" إشنان " إله الحبوب، عن تأمين حاجات الآلهة من الطعام والشراب.

الطين، التراب، الماء، النفخة، كل ذلك يفترض وجود الذاكرة عن قصة الخلق التي لآدم، ومع مرور الزمن وتشوه الذكريات عن الخبر الأساس، أصبح مخلوقاً من دم ولحم أحد الآلهة الصغار، وبعد أن خلق الله آدم أو الجنس البشري كخليفة له على الأرض، أصبح على يدي الكهنة مخلوقاً لخدمة الآلهة في الظاهر وفي خدمتهم على الحقيقة، كما أصبحت عجينته من دم ولحم الإله الشرير، الخائن الآثم، فإنتقاماً من الإله صاحب الفتن أصبح لحمه ودمه إنساناً خادماً للآلهة وعبداً لها. فحيث ضاع الخبر الصحيح، كان ضياع قيمة الإنسان وكرامته حتى كان الإسلام مقوِّم الحضارات ومصلحها.

- المواسم والأعياد وإحياء الأساطير: في كل سنة، في كل موسم، يتم إعادة تمثيل الأساطير لتكون فاعلة وحية للعام الجديد، وليس هذا كذكرى لما حدث فحسب، إنما استعادة لما حدث إلى الزمن الحاضر، وبهذا يصبح الإنسان مع حضور الآلهة، معاصراً للزمن الأول، الزمن المقدس، زمن

---

[1] - ص ٢١٥ ما قبل الفلسفة

الآلهة السعيد، زمن الخلق، زمن الكمال، ولا بد من تجديد العالم أو إعادة خلقه من جديد كل سنة وذلك بإنشاد أساطير الخلق، وإلا فهو الخراب والهلاك للعالم والمخلوقات. وعلى الإنسان محاكاة أفعال الآلهة في زمن الخلق الأول، وإن كانت مرحلة ما قبل التنظيم أو الخلق تتسم بالفوضى والموت، أو ما يسمى بمرحلة " العماء " فعلى الإنسان أن يقوم بطقوس ذات معنى مع الموت أو الفوضى التي مثالها الإباحة الجنسية لأيام معلومة، وإلا فلا وصول لمرحلة الخلق وتجديده، وكل حدث ذُكر في الأساطير عن إله مات أو ضحى بنفسه من أجل الإنسان أو التكوين، فإنه يفرض على المؤمنين قرباناً بشرياً ليستمر الوجود كما أرادته الآلهة، أو ليكون الخير والخصب في العام الجديد.

أما الطقوس وقوتها السحرية، لا فرق يغدو بين الماضي والحاضر، ومن انعدام هذا الفرق أُستخدمت الأساطير أو تلاوتها على المرضى من أجل الشفاء، وبتلاوتها على المريض يصبح معاصراً للخلق الأول الذي يخلو من المرض، وبعودته هذه يكون الشفاء من كل داء مع بدء حياته من جديد، فالشفاء معناه العودة للزمان الأول، الزمن النموذج، أو العودة لمرحلة ما قبل وجود المرض.

ـ القرابين البشرية:

القرابين كانت موجودة مذ كان آدم، وقد استخدمت من ابنيه طلباً للحكم الإلهي فيما اختصما عليه، فحكم الله لأحدهما بقبول قربانه دون الآخر، ولم يكن قربانهما من البشر، بل مما يملكان، وانطلقت فيما بعد الفكرة التي فيها الربط بين إرادة الله أو علمه والقرابين، لتصبح القرابين بشرية والإله آلهة. وعن عصر النياندرتال يقول أصحاب العصور، في هذا العصر " تأكدت عقيدة أكل اللحم البشري، بدوافع دينية واجتماعية، فقد عُثر في مونت سيرسو بأيطاليا وفي أورتو في فرنسا وفي كرابنيا في يوغوسلافيا خاصة على جماجم منزوعة الدماغ، وعلى العديد من الهياكل العظمية لنساء إما صغيرات في السن أو مسنات، وقد قطعت عظامهن وقرضت بالأسنان، وألقيت بقرب الموقد الذي جرى حوله هذه الشعائر الدينية للولائم المقدسة "[١]، وأثبتت الشواهد أنه منذ ٥٠٠٠ عام ق.م، " وجود القرابين البشرية "[٢] عند سكان أمريكا الوسطى، وفي الهند القديمة حيث الإعتقاد: " بأن تأدية الشعائر وتقديم القرابين هما الوسيلتان الرئيسيتان الفعالتان في تأمين ما هو مرغوب فيه "[٣]، وقبائل الباجندا في

---

[١] ـ ص ١٥٥ عصور ما قبل التاريخ

[٢] ـ ص ٢٦ مجلة الثقافة العالمية عـ١١

[٣] ـ ص ٢٠٤ الفكر الشرقي القديم

جنوب الهند كان لديهم " عادة وأد البنات وهن أحياء عند ولادتهن "[١] كالعرب، والإلهة " كالي " في الهند " تبدو في إحدى المنحوتات البارزة بشكل مفزع، تضع في أذنيها قرطاً من جثث الموتى وفي عنقها طوقاً من الأفاعي الملتفة، وفي وسطها حزاماً من الجماجم، وفي منحوتة أخرى، جلست القرفصاء فوق جثة مفتوحة البطن تأكل من أمعائها، وفي أحد التماثيل بأذرعها الأربعة، واحدة ترفع سيفاً هائلاً، وبأخرى وعاء تشرب به الدماء، وتضم إليها قبضة ثالثة إظهاراً للقوة وتبسط الرابعة لتلقِّي صلوات البشر، " وفي مناطق البنغال في القارة الهندية، وحتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر، كان القربان البشري يقدم كل عام في عيد إلهة الأرض، فكانت الضحايا تُشترى من كلا الجنسين من العائلات الفقيرة "[٢]، وبعد قتل الضحية بالسكاكين، يقسمون جثتها بالتساوي بين العائلات لتدفن في الحقول.

وفي موقع شوكوتين الصيني تم العثور " على جماجم وعظام أطفال تعود لعصر" الهو موا ركتوس " عليها آثار عض وقرض وكسر مقصود "[٣]. وبالطبع لم يأكلوا الإنسان لسد الجوع، وإنما لاعتبارات دينية

---

١ - ص ٢٥٩ الأنثربولوجيا الإجتماعية
٢ - ص ٢٩٠ لغز عشتار
٣ - ص ١٣٣ عصور ما قبل التاريخ

واجتماعية، وقرابينهم هي الأخرى دموية تكثر فيها القرابين البشرية، " فتيات يقدمن كزوجات للآلهة والأسرى يقدمون لرب الأرض والأجداد، والسحرة والمشوهون يقدمون قرباناً لاستدرار المطر في أوقات الجفاف، وقد تذبح هذه القرابين أو تحرق أو تدفن أو تغرق"[١].

واليونانيون يقدمون للمينو تور، مسخ مينوس، ضحية بشرية كل عام "[٢]، والقرطاجيون " قدموا في عهد متأخر ضحايا بشرية من الأطفال لـ" إيل " الذي عرف عندهم ببعل هامون "[٣]، والإلهة أرتميس، سيدة الموت المفاجئ، سيدة الظلام وعالم السحر والأشباح " كانت تسر بالأضاحي البشرية، ففي إلياذة هوميروس نجد " آغا ممنون يذبح ابنته " أمجنينا " قرباناً لها، لتقوم بإثارة الرياح أمام سفن الإغريق في طريقهم إلى طروادة. والغرباء ممن قضى حظهم العاثر الإقتراب من شواطئهم كانوا يقدمون قرباناً على مذبح الآلهة، وفي مناطق أخرى جرت العادة في الفترات القديمة من تاريخ الإغريق على تقديم عدد من الفتيات قرباناً لأرتميس كل خمس سنوات "[٤] لاسترضائها وكف غضبها. وفي الحصاد حيث قُتل إله القمح، يعاد تمثيل مقتله بقربان بشري، بنفس الطريقة التي مات بها الإله

[١] - ص ٦٠٠ – ٦٠١ تاريخ الحضارات القديم
[٢] - ص ٢٤٠ نفسه
[٣] - ص ٢٦٠ نفسه
[٤] - ص ٢٢٢ لغز عشتار

الابن "[1]، والأسرى كانوا يقدمون ضحايا للإله ديونيسوس أو للإله مستيس " آكل اللحم النيئ "[2].

الكنعانيون أو الفينيقيون " كانوا يقدمون الأطفال كقرابين بشرية إلى الإله " مولوك "[3] أو مولوش، " بخاصة الابن البكر، الذي يقدمونه حرقاً "[4]، كما قدموا للإله " ملخ "، " الأولاد كضحايا "[5]، " وفي المكان المرتفع – المزار – المشهور في "حزر" وُجدت بقايا أولاد قدموا كضحايا ودفنوا في جرار "[6]، وقد روى "ذيودوروس " أن " القرطاجيين كانوا يضحون لكرونوس بالأطفال الذين كانوا يلقونهم في آتون "[7]، والأموريون في " حزر " مارسوا التضحية بأول مولود، وعند تأسيس منشآتهم التي منها المعابد، وفي شعر سومري: أن الآموري يبني باحة معبده على رجل ميت "[8].

---

[1] - ص ٢٨٤ نفسه
[2] - ص ٣٦٢ تاريخ الحضارات العام
[3] - ص ٤٨ علم التنجيم
[4] - ص ١ الديانات السورية القديمة
[5] - ص ٨٢ تاريخ سورية القديم
[6] - ص ٨٥ نفسه
[7] - ص ٥٩ الديانات السورية القديمة
[8] - ص ٤٨ تاريخ سورية القديم

والأزتك في أمريكا الوسطى، كانوا على حضارة مزدهرة في القرنين السابع والثامن الميلادي وكانوا يعبدون الشمس، ولأجلها قدموا القرابين البشرية على أهراماتهم أو مساطبهم "[١]، وقد كانوا " يحسبون أنفسهم مسؤولين عن استمرار الكون لكونهم أبناء الشمس، وحتى تُزود الشمس بالقوة اللازمة لتخرج النهار للناس، لا بد من تغذيتها بأكثر الأطعمة قداسة ألا وهو دم البشر، وكان يطلب تقديم الدم في فترة معينة من أوقات الإحتفالات المستمرة، ومن كل إنسان سواء كان رجلاً أو امرأة أو طفلاً "[٢]، و" على قمة الهرم، أمام مدخل هيكل "ويتسيلوبوتشكي" عُثر على حجر للتضحية، قدم عليه كهنتهم الألوف من القرابين البشرية "[٣]، ويطلق على الكهنة مقدمي القرابين " الناكونات "، ومساعدوهم " التشاكات "، وقد استخرج الجيولوجيون من مدينة " تلاتكو " مائة وسبعين جمجمة، ثقبت لتسلك في حبل لتعليقها بين عمودين "[٤].

فالشمس تحتاج للدم الكثير، ولا استثناء في هذه الضريبة، فالرجال والنساء والأطفال، كلهم يجب أن يقدموا شيئاً من دمائهم لهذه الإلهة، وبطقوس إعادة الأساطير أو إعادة الخلق لضمان الخصب، تقدم القرابين

---

[١] ـ ص ٢٤٥ الحضارة عـ٢٣٧ عالم المعرفة
[٢] ـ ص ٢٧ الثقافة العالمية عـ١١ ١٩٨٣
[٣] ـ ص ٢٠٣ المدن الأولى
[٤] ـ ص ٢٥ الثقافة العالمية عـ١١ ١٩٨٣

البشرية " وفي احتفال " تيتك " يضحى فيه بإمرأة من سن الكهولة بضرب عنقها، وفي عيد الحصاد الكبير يتم تقديم فتاة شابة بعد نومها مع الأمبراطور ليلة واحدة قرباناً في هيكل إلهة الحبوب " شيكوميكوتل "، وبعد أن يقطع أحد الكهنة عنقها " يقوم رئيس الكهنة بسلخ جلدها ليتشح به "[1]، وتمثلاً بإلهة الذرة، يختارون في عيد الخصب فتاة صغيرة في غاية الجمال يلبسونها زي إلهة الذرة، ثم يحملونها في موكب حافل إلى المعبد، وهناك يأتي إليها النبلاء والنبيلات في صف واحد، وقد حمل كل واحد وعاء فيه دم مفصود من جسمه، فيسكبونه تحت قدميها، ثم يرددون وراء كبير الكهنة الأدعية والصلوات، وهم يبكون وينوحون، فإذا انتهوا بسطوا جسد الفتاة على كومة من حبات الذرة والبذور الأخرى، ليتقدم كبير الكهنة لقطع رأسها، ورش دمها على الحبوب والبذور وتمثال الإلهة، ثم يسلخ جلدها ويعطى لأحد الكهنة لارتدائه "[2]، ثم يخرجون من المعبد فرحين بموكب عظيم، وإله الحرب " ويتسيلوبوتشتكي " يتطلب منهم القرابين الدائمة وهي قلوب بشرية "[3]، وليس القتل يتم بقطع الرأس فقط، فقد " يتم قتل الضحية بجعلها بين حجري الطاحون في عيد الحصاد، لتدفن أشلاؤها

---

[1] - ص ٢٩ نفسه
[2] - ص ٢٨٩ لغز عشتار
[3] - ص ١٩٢ المدن الأولى

في الحقول "[1]، والأسرى لديهم يقدمون قرابين لآلهتهم، وقد كانوا فيما يسمونه " حرب الزهور " يقدمون " بحملات عسكرية خاصة، بهدف القبض على الأسرى لتقديمهم ضحايا للإلهة، بشكل جماعي "[2]، ويروي " ساهاغون " أن جثة الأسير كانت تقسم إلى قطع، فالفخذ يرسل للأمبراطور، وباقي الجثة يطبخ مع الذرة والفول " ليؤكل في وليمة، وتكريساً للإله " سايبتوك " يتم سلخ الرجال الأسرى في مهرجان مهيب بعد قتلهم "[3]، ومن طرائف القوم أنه في " عام ١٣٢٣ م، زوج حاكم " كولخوكان " ابنته إلى زعيم من الأزتك، ولكنه بإيعاز من الكهنة، قُدمت الفتاة المسكينة قرباناً إلى الآلهة، ولم يكن منه إلا أن قاتلهم ثم طردهم من مملكته "[4].

الإلهة أو الإله الذي مات أو قتل من أجل تأمين حياة الإنسان تستدعي بالضرورة قرباناً بشرياً، فالإلهة " هانويل " قتلها بعض الناس، فجاء أخوها فدفنها في الأرض قطعاً كثيرة، ومن هذه القطع كانت النباتات المتنوعة التي أهمهما " الدرن " الذي أصبح الغذاء الرئيسي للإنسان، أما أختها " ساتينا " فحولت القتلة إلى حيوانات كالخنازير والعصافير

---

[1] - ص ٢٩١ لغز عشتار
[2] - ص ١٣٣ نفسه
[3] - ص ٢٩ ــ ٣٠ مجلة الثقافة العالمية عـ١١
[4] - ص ١٩٣ المدن الأولى

والأسماك، فهذا الموت للإلهة " ليس موتاً خالقاً وحسب، وإنما يؤسس طريقة للوجود يعمل بها البشر "[1]، وبإعادة هذا الحدث طقسياً إلى الحاضر، ولضمان الخصب في المستقبل، يكون القربان البشري كبديل للإلهة التي أصبحت في عالم اللاعودة، وإلا فلا خصب ولا نباتات، " فالنبات الغذائي لم يكن عن عمل مع الطبيعة، وإنما هو نتاج إلهة أو إله مقتول "[2]، والإنسان بعد الحدث الأول هو البديل، والقربان البشري هو الذي يلعب دور الإله المقتول، ولا بد من محاكاة ما فعله الآلهة زمان الخلق الأول، لبقاء الكون كما كان، وبهذه الفلسفة إن صح التعبير يكون تبرير وجود القرابين البشرية، وحيث أن الإله قتل هولة البحر وقطعها أرباً ليخلق من أشلائها الكون، قطع الإنسان جثث القرابين إلى أجزاء لدفنها في الحقول.

وقد يكون القربان البشري لطلب العون من الآلهة، فالأمبراطور الروماني " ديديوس جوليانوس "، ضحى ببعض الأطفال، ليتوسل إلى آلهة العالم السفلي العون والمساعدة "[3]، والبلغار إلى زمن قريب، كما يقول ابن فضلان " كانوا يضحون برجال على جانب كبير من الذكاء من

---

[1] - ص ١٣١ ملامح من الأسطورة
[2] - ص ٩٨ المقدس و الدنيوي
[3] - ص ٦٨ أميرات سوريات حكمن روما

أجل الآلهة "[1]، " وكانت بعض القبائل العربية، مثل عرب دومة الجندل، وعرب البترا، تضحي بالأسرى، وأيضاً بالأناسي، يعلقونها أمام الصنم "[2]، ولما انتصر المنذر بن ماء السماء سنة ٥٤٤ م، على الحارث، أسر ابنه، فقدمه قرباناً " للإلهة العزى "[3]، والمصريون إلى زمان الفتح الإسلامي، كانوا يقدمون للنيل القرابين البشرية، جارية بكر، حتى يفيض عليهم بالماء والخير "[4]، وفي إيرليندا، الإلهة" آنو السوداء " ملتهمة البشر، كانت الأضاحي البشرية تقدم على مذبحها باستمرار "[5].

ومن الطقوس الدموية أيضاً، ما يعرف بقربان الخصاء، تقول أسطورة من روما: إن إلهة الطبيعة " سيبيل " ضربت ابنها حبيبها " آتيس " بالجنون، فخصى نفسه تحت شجرة التين أو الصنوبر التي ترمز إلى سيبيل، فنزف حتى الموت، وموته هو موت القمح في الخريف، فهو إله القمح، وباقة القمح من ألقابه، ثم يعود للحياة تارة أخرى في الربيع، وفي عيد الربيع أو عودته، تقام طقوس الخصاء، ولهذا سمي بيوم الدم، فيقوم الكهنة الجدد " فيضحون بذكورتهم أمام تمثال الإلهة "[6]، وعند بعث الإله

---

[1] - ص ١٧٤ ــ ١٧٥ ج١ تراث الإسلام عـ٢٣٣ عالم المعرفة
[2] - ص ٧٣ المجادلة الحضارية
[3] - ص ٢٨١ تاريخ بلاد الشام
[4] - ص ٢٧ ــ ٢٨ ج١ البداية و النهاية
[5] - ص ٢٢٩ لغز عشتار
[6] - ص ٢٣٧ نفسه

" أدونيس " الميت في سوريا ابن " عستارت " وحبيبها يقام طقس الخصاء " وهنا يندفع الشباب واحداً أثر آخر إلى مكان مخصص فيه سيوف مغروسة فيستلونها ويخصون أنفسهم بأيديهم "[1]، والقربان بالخصاء على ما يبدو، إنما لاستبدال القربان البشري بجزء منه، وعوضاً عن قتل النساء، كانت قرابين الدعارة في معبد أدونيس، بحيث " يوضع جمالهن في البيع طيلة يوم، وأثمانها تؤخذ كهبات لأفروديت"[2]، ورويداً رويداً تم استبدال القرابين البشرية بالحيوانات " واضاحي التأسيس التي كانت تشتمل فيما مضى على أضحية بشرية تم استبدالها نهائياً بسراج "[3]، ومدونات " صور " وآثارها في الألف الثالثة ق.م تشير إلى استبدالهم " الحمل كفداء للبشر "[4]، واليونانيون هم أيضاً حاربوا طقوس التضحية بالبشر، بصياغتهم لأسطورة " تسيوس " التي تقول: لما انتصر ملك كريت نينوس، على إيجيوس ملك أثينا " فرض على الآثينيين كل عام سبع عذارى من أجمل فتيات أثينا، وسبعة شبان من أجمل فتيانها لتقديمهم للمينوتور وحش المتاهة "[5] ليلتهمهم، واستنكر تسيوس هذا الأمر، وبمساعدة أرdياني ابنة

[1] - ص ٢٣٥ نفسه
[2] - ص ٤١٧ تاريخ سورية الحضاري القديم
[3] - ص ٦٠ الديانات السورية القديمة
[4] - ص ٤٥٤ تاريخ سورية الحضاري القديم. ص ١٨٦ معالم حضارات العالم القديم
[5] - ص ١٥٥ ميثولوجيا الأبطال

مينوس التي مال قلبه إليها، وحيث زودته بكرة الخيطان السحرية وصل إلى المينوتور وقتله، وهكذا خلص الضحايا من مصيرهم المحتوم، " أما الفيلسوف اليوناني " أنبيدوكليس "، فقد جلب تمثالاً مصنوعاً من العجين بشكل ثور وضحى به بدلاً من الثور الحقيقي "[1]، وقد أدان الفيلسوف " فيلوستراتوس " القرابين البشرية، " واعتبرها عملاً يدنس الدين "، وفي روما " منعت رسمياً بقانون صدر سنة ٩٧ م "[2]، ووضعت المعابد تحت المراقبة الدقيقة، أما الإسلام فقد عالج مسألة القرابين البشرية من اتجاهين، الأول: في إعلانه التوحيد ونبذه للعقائد التي قالت بتعدد الآلهة، ولولا هذا التعدد بالفعل ما كان هناك إله يموت ثم يبعث، ولا كان هناك من قرابين المحاكاة ولا قرابين إطعام الآلهة، فمن فساد التعدد والإعتقاد، كان فساد قضية القرابين، وإصلاحاً لدور القرابين وربطاً بين آدم ومحمد عليهما السلام، قال تعالى: " **لن ينال الله لحومها ودماؤها ولكن يناله التقوى منكم** "[3]، وأصبحت الأضاحي ذات دور إجتماعي وإنساني بناء، وعلى المضحي بالحيوانات كما يقول الفقهاء: " أن يأكل الثلث ويهدي الثلث ويتصدق بالثلث "[4]. أما الإتجاه الثاني: فهو البحث عن جذور الإعتقاد

---

[1] - ص ٢٩ أميرات سوريات حكمن روما
[2] - ص ٤٤٩ معالم حضارات العالم القديم
[3] - الحج: ٨
[4] - ص ٥٩٢ ج١ حياة الحيوان الكبرى

بالقرابين البشرية، وكشف زيف تجربة الحلم عند المشرعين لهذا الإعتقاد، وقصة إبراهيم عليه السلام مع ولده إسماعيل تدور حول هذا المحور: " **قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين، وناديناه أن يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم** "[١]. وحي بالرؤيا يأمره بذبح ولده، فالرؤيا عند الأنبياء جزء من الوحي الذي لا يعتريه الشك، ولهذا وافقه إسماعيل على صدق رؤياه، كما وافقه على ما أوحي إليه، ولما هم بذبحه، جاءه الكبش فداء له، والمستفاد: أنه حتى في رؤية الأنبياء الآمرة بالقربان البشري كابتلاء، كان شرع الله بالفداء، ومن ثم تحريم القرابين البشرية، وأصبح عيد الأضحى من كل عام، يذكِّر المسلمين بهذا التحريم، وإذا أردنا التعرف على الأسس التي شرعت القرابين البشرية في الحضارات القديمة، فسوف نجدها في تجربة الحلم، ولكن لا تأويل لأحلامهم، ولا هي صادقة، ومن حيث هي حقيقة بزعمهم اقترنت الدماء بالقرابين، فالإسلام إذاً ومن حيث هو على دور الإصلاح، أقر بوجود

١ - الصافات: ١٠٣ – ١٠٦

القرابين وأعطاها معنى إجتماعياً، ومن ثم منع أو حرم القرابين البشرية أو قرابين الأذى مهما كان شكلها أو نوعها.

ـ نوح وأساطير الطوفان:

إن لقصة نوح التي ذكرت في القرآن، ثوابت وعلامات أساسية، تخص الزمن الذي وُجد فيه نوح، وهي كما يلي:

١ ـ عقائد قوم نوح: لقد كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة، كما اتخذوا التماثيل والأوثان كمعبودات ومقدسات لا غنى عنها لتعدد الألوهية، قال تعالى: " **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا** "[١]

والملاحظ أن الله ذكر تعدد الآلهة ثم ذكر الأسماء كشيء آخر، وربما أنها تماثيل للأسلاف، وهم عندها ممن عبدوا أسلافهم، إلى جانب اعتقادهم بتعدد الآلهة، والمؤسف أن المسلمين اكتفوا بالإسرائيليات دون البحث الموضوعي لتفسير كل ما ورد في قصص القرآن من علامات، بل وحتى الآن ما زالوا بعيدين عن أهمية هذا الموضوع، فأين البحث والتنقيب وعلم الآثار الإسلامي؟ لا شيء، واعتماد البعض على التوراة لفض كل ما هو غامض غير مدرك، جعل من التوراة أكبر عقبة اعترضت الفكر الإسلامي في هذا المجال.

[١] ـ نوح: ٢٣

٢ – نوح ومرحلة تصنيع السفن: لم يكن صنع السفن زمن نوح موجوداً عند البشر، وصنعه للسفينة كان بوحي من الله، لا عن مثال كان موجوداً، رعاية لنوح ومن آمن معه، وعقاباً لمن كفر، ولقد قال تعالى: " **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا.**"[١]، أي: برعايتنا وتعليماتنا، وبتوجيه من الوحي قام نوح بصناعة السفينة، بل ومن حيث هي أول سفينة مصنوعة، لا وجود فيها لربان التوجيه، الذي أصبح فيما بعد من ضرورات وجود السفن، لأن الله هو ربانها ومجريها ومرسيها، قال تعالى: " و**قال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم** "[٢]، ولنا في داوود فيما بعد مثل عن تعليمه تعالى صنع دروع من الزرد بعد أن كان من الصفائح.

ولو بحثنا عن الزمن لانتشار القوارب والسفن لوجدنا أنه في الفترة العبيدية في بلاد الرافدين ٤٥٠٠٠ – ٣٥٠٠ ق.م في تل العقير قرب بغداد، أن الحفريات قد بينت "أن صيد السمك سواء هنا أو في العبيد كان عمل السكان الأساسي إلى جانب الزراعة، وكانت قوارب الصيادين، كما تشير نماذجها الفخارية، ذات مقدمة ومؤخرة عاليتين "[٣], وفي وادي النيل

[١] - هود:٣٧
[٢] - هود: ٤١
[٣] - ص ٤٦ المدن الأولى

بمنطقة البداري في مصر العليا " في النصف الثاني من الألف الرابعة ق.م، عُرفت وسائل النقل المائية، إذ يدلنا على ذلك وجود صور لقوارب نهرية على الأواني الفخارية التي تعود إلى تلك الفترة "[١]. وهذا معناه على أقل تقدير، أن زمن نوح أقدم من تاريخ ٤٥٠٠ ق.م، وحيث وجد تحديد زمني للسفن أو القوارب في التاريخ البشري، فسفينة نوح قطعاً هي الأقدم.

٣ – عمر نوح: يقول الله تعالى: " **إن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض**"[٢]، أي أن السنة أو العام في كتاب الخلق أو القرآن تتكون من إثني عشر شهراً، ويقول تعالى: " **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً** "[٣]، أي: إن عمر نوح أكثر من ٩٥٠ سنة، بالسنة التي وصف سبحانه تكوينها وهي السنة المتداولة زمن البعثة، وعندما تختلف بنية السنة ما بين السنة التي في السموات والأرض، مع سنة من نوع آخر، فالتنويه لهذا الفرق مذكور في القرآن.. " **في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** "[٤] من سنوات الأرض.

---

[١] - ص ١٧ معالم حضارات العالم القديم

[٢] - التوبة: ٣٦

[٣] - العنكبوت: ١٤

[٤] - المعارج: ٤

لقد أدرك علم الآثار بعض نماذج للعمر المديد للإنسان القديم، " فحسب التراث البابلي، دام حكم الملوك الثماني أو العشرة في مرحلة قبل الطوفان ما بين ١٠٨٠٠ – ٧٢٠٠٠ سنة، وبالمقابل لم يتجاوز حكم ملوك السلالات الأولى بعد الطوفان ١٢٠٠ سنة، وفي مصر نعثر لديهم على التراث الأسطوري القائل بالإمتداد الهائل لأعمار الملوك الذين حكموا قبل مينيس "[١]، وشخصيات الأساطير السومرية التي بالأساس لملوك من البشر " قد تم العثور على قائمة الملوك في سومر ابتداء من تأسيس الدولة وحتى القرن الثامن عشر ق.م، وقد عزى واضع القائمة إلى الكثير من الملوك مدداً خيالية تماماً لحكمهم مثلاً: " أتيانا الراعي الذي ارتفع إلى السماء، وأصبح ملكاً حكم ١٥٠٠ سنة، و" اين – مينباراكيس " الذي لوى سلاح عيلام، أصبح ملكاً وحكم ٩٠٠ سنة "[٢]، " والبوذيون بدورهم يؤكدون على فكرة النقصان المذهل في أعمار البشر، إذ كان عمر الإنسان في بداية الدورة الكونية ٨٠٠٠٠ عام، ثم هبط هبوطاً كبيراً جداً عند نهايتها "[٣]. ولكن ما ينقصنا في هذا التحديد هو خلوه من تحديد بنية السنة المعتمدة في العدد، وبعض الحضارات أرخت بالسنة الطقوسية، وهي سنة

---

[١] - ص ٧٩ ملامح من الأسطورة
[٢] - ص ٨٢ المدن الأولى
[٣] - ص ٧٨ ملامح من الأسطورة

عرفية لا قمرية، ففي حضارة الميزو أمريكية في مدينة تيوتيهوا مثلاً كانت سنتهم الطقوسية تتألف من ٢٦٠ يوماً "[١]، وبناء عليه يكون زمن نوح إنما يتبع لحقبة كانت حياة البشر فيها أكثر من ٩٥٠ سنة قمرية وإلا فنوح أقدم من كل تحديد وجد عند أصحاب الآثار، ومن إدراك البعض لأساطير الطوفان في بلاد ما بين النهرين، على أنها بزعمهم عن نوح، قال: " ولقد أجمع المؤرخون في العالم على أن حادثة الطوفان قد وقعت في حوالي ٣٠٠٠ سنة ق.م، وبالتالي فإن الزمن سام بن نوح يعود إلى ذلك التاريخ "[٢]. ولكن زمن طوفان نوح لا يساوي طوفان جلجامش في بابل أو في غيرها من الأساطير، ولا الذي ذكرته التوراة في تحديدها الزمني بالتحديد الصحيح.

٤ – الحبال والمسامير والتنور في قصة نوح: قال الله تعالى: " **وحملناه على ذات ألواح ودسر** "[٣]، وقال: " **حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين إثنين**"[٤].

[١] - ص ١٣٣ المدن الأولى
[٢] - ص ٦٣ العرب و الساميون
[٣] - القمر: ١٣
[٤] - هود: ٤٠

واختلف المفسرون حول معنى " دُسر " تبعاً لاختلاف المعنى اللغوي لها، ففي اللسان " الدسار ": خيط من الليف الذي يشد بعضه بعضاً والدسر كما يقول الزجاج هو إدخال شيء في شيء بقوة، أو الدفع بقوة، والمعنى الثاني: الدِّسار المسمار، وكل ما سمِّر فقد دُسر، قاله الفراء واختاره الطبري"[١]، وصاحب عرائس المجالس "[٢]، وصاحب البدائع"[٣]، وصاحب أخبار الزمان "[٤]. وحتى نختار أحد المعنيين، حبال الليف أو المسامير يجب علينا الإحاطة بظروف السفينة، فسفينة نوح سترتفع بمياه السيول الجارفة للصخور والطمي والحجارة وإلى ما هنالك، وبمياه المطر والمياه التي تنبع من الأرض، فإذا ما تم تثبيت ألواحها بمسامير الحديد، فمن المحال وهي على هذه الحال ان تصمد ولو قليلاً، لأن المسامير بالإحتكاك ترق وتضعف وتتخلخل مواضع التثبيت، وليس أنسب حينئذ من حبال الليف لتثبيت القطع الخشبية بعضها ببعض، وقد استخدمت هذه الطريقة حتى في عصور مديدة بعد نوح، والمسعودي يقول: " ومراكب البحر الحبشي لا يثبت فيها الحديد، لأن ماء البحر يذيب الحديد، فترق المسامير في البحر وتضعف، فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلاً منها، وطُليت

[١] - ص ١١٥ ج١ تاريخ الأمم و الملوك
[٢] - ص ٤٨ عرائس المجالس
[٣] - ص ٤٩ بدائع الزهور
[٤] - ص ٨٣ أخبار الزمان

بالشحوم والنورا "[1], وفي جزائر ديبة المهل أو جزر مالديف اليوم، يصنعون الحبال من جوز النارجيل أو جوز الهند " وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن، لأن ذلك البحر كثير الحجارة، فإن كان المركب مسمراً بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر، وإذا كان مخيطاً بالحبال أعطى الرطوبة فلن ينكسر "[2]، ولما زار الأحقاف وجدهم على نفس الحال في تثبيت قطع مراكبهم "[3]، وابن جبير وصف المراكب أو الجُلَّاب المستخدمة لنقل الحجاج، قائلاً: " والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الإنشاء، لا يستعمل فيها مسمار البتة، إنما هي مخاطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل، يدرسونه إلى أن يتخيط، ويتفلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب "[4].

أما قوله تعالى: " ذات ألواح " فإنه يثير تساؤلاً هاماً في هذه المسألة، عن كيف حول نوح الخشب الطبيعي المبروم إلى ألواح، فهل استخدم المناشير أو الأدوات المعدنية؟ ألا تشير لفظة " ألواح " إلى مرحلة متقدمة من مراحل التصنيع عند البشر خاصة أنه سبحانه قد ذكر " التنور" الذي قد يستنتج البعض من ذكره السيطرة على النار الحامية التي لها التحكم

---

[1] - ص ١٨٥ ج١ مروج الذهب
[2] - ص ٦٥٨ ج٢ رحلة ابن بطوطة
[3] - ص ٢٨٩ ج١ نفسه
[4] - ص ٦٤ – ٦٥ رحلة ابن جبير

بتصنيع الحديد. الحقيقة أن لا شيء من هذا في الواقع، خاصة أن ذكر التنور، قد ورد قرين الماء لتحديد بدء الطوفان دونما ذكره للنار، وليس عبثاً أن ذكر تعالى مرحلة تليين الإنسان للحديد بعضر الإسكندر ذو القرنين: " **آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أُفرغ عليه قطراً** "[1] فلا شك في هذا الوصف الذي يشير إلى مرحلة صهر الحديد بواسطة النار التي النفخ عليها من شروط إيجادها على حرارة قوية تسمح بتليين أو التحكم بالحديد، إلى حد انصهاره علماً أن الإسكندر بعد نوح، وعن عصر داوود، قال تعالى: " **وألنا له الحديد، أن اعمل سابغات وقدِّر في السَّرد** "[2]. وبناء عليه فإن نوح لم يصنع الألواح بآلات معدنية مصنعة إنما بوسائل أخرى كالصوان والسيليكون والفؤوس الحجرية، وقد كشفت الآثار في تل حسونة ٦٠٠٠ ق.م أنهم كانوا يخبزون الخبز " الأرغفة " في مواقد طينية على شكل قبة تشبه التنانير العربية المعاصرة، والأدوات عبارة عن جواريش وأجران ومدقات ومناجل ذات نصال سيليكونية وفؤوس حجرية "[3]، وكانوا " يعالجون المعدن، فقد عثر على طبقات الألف السادس قبل الميلاد على

[1] ـ الكهف: ٩٦
[2] ـ سبأ: ١٠ ـــ ١١
[3] ـ ص ٣٩ المدن الأولى

حلي نحاسية وقطع من الخبث النحاسي "[1]، وفي مصر في مراحل أحدث مما سبق ١٥٨٤ – ١٠٧١ ق.م " كان يستعمل الحديد، ولكن بكميات قليلة، وبصورة رئيسية، في أدوات الزينة للأغنياء، أما الفقراء فكانوا يستعملون الأدوات الحجرية "[2] للزينة. فليس من ربط إذاً بين التنور والتحكم بالحديد لصناعة المسامير، إنما المراد من ذكره هو الدلالة على قدم المرحلة الزراعية وقدم تصنيع الخبز بالنار، وهي قطعاً أقدم من ٦٠٠٠ سنة ق.م كأقل تقدير علماً أن نوح هو أول مذكور من الأنبياء بعد آدم، أما الذي قاله الحسن من أن التنور هو تنور حواء صار إلى نوح "[3]، أو أن التنور يعني وجه الأرض، أو فلق الصبح وتنوير الفجر، أي: إشراقه وضياؤه، أي: عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين إثنين "[4]، فهذه كلها تأويلات لا مرجح لها من حقيقة موضوعية وهي أقوال غريبة على حد تعبير ابن كثير.

أما التساؤل الأخير: هل الطوفان غمر كل الكرة الأرضية أم لجزء منها؟ فهو برأيي سؤال خاطئ، والبديل هو التساؤل هل قضى الطوفان بالموت على كل البشر أم على بعضهم دون بعضهم الآخر؟ والجدير بالذكر أن الكرة الأرضية لم تكن قديماً معمورة كلها، وهذا الإنتشار الواسع

---

[1] - ص ٤٠ نفسه
[2] - ص ٣١ معالم حضارات العالم القديم
[3] - ص ١١٦ ج١ تاريخ الأمم و الملوك
[4] - ص ١١١ ج١ البداية و النهاية

الذي نراه اليوم لم يكن ذا وجود من قبل، فالبشر كانوا محدودوا الموقع ومحدودوا العدد، وعلى ما يبدو أنه لم يكن هناك إلا مجتمع واحد لا غير، فالعقاب بالطوفان إن قلنا بضرورة وجود العدل، لا عدل فيه إن وجدت الأمم الأخرى، لأنه لا عقاب دون علة أو إنذار " **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** "، " **وما من أمة إلا خلا فيها نذير** "، أما طوفان نوح وحيث العدل الأكيد، فهو محدود بتكذيبه والكفر بما أتاهم به من رسالة، وهذا معناه أنه لم يكن من مجتمع على الأرض إلا قوم نوح لقوله تعالى: " **وجعلنا ذريته هم الباقين** "[1]، وقوله تعالى عن نوح وإبراهيم: " **وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب** "، أي: بعد الطوفان لم يبق من بشر إلا من نسل نوح أو ذريته. وتفصيل ذلك في قوله تعالى: " **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** "[2]، فمعناه أن السفينة قد حملت ممن ليسوا من ذرية نوح ومن هؤلاء ستكون أمم، يمسهم العذاب القاتل بكفرهم، حتى لم يبق على الأرض إلا ذرية نوح، وقد قال ابن عباس: نوح هو آدم الأصغر.

---

[1] - الصافات: ٧٧

[2] - هود: ٤٨

الطوفان عظيم بلا ريب، والسفينة " **تجري بهم في موج كالجبال** "[١]، وابن نوح " **قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء** "[٢]، ولم يمنعه الجبل من الغرق " **فكان من المغرقين** "، ومياهه أمطار من السماء وينابيع من الأرض: " وقيل يا أرض ابلعي ماءكي ويا سماء أقلعي ". وهل لذاكرة البشر نسيان أمثال هذا الحدث العظيم؟ إن موقع قوم نوح لا تحديد له في القرآن، وكل المذكور أن السفينة قد " **استوت على الجودي** "[٣]، وهو جبل قرب الموصل في العراق "[٤]، أو في بلاد ما بين النهرين، أو قرب قرية قرد "[٥]، أو قرب قرية جدال "[٦]، أو قرب مدينة " ثمانين "[٧]، كل ذلك بالموصل " وهو جبل حصين من أرض الموصل "[٨]، " والجودي جبل ببلاد باسوري، وجزيرة ابن عمر ببلاد الموصل، وبينه وبين دجلة ثمانية فراسخ "[٩]، وابن بطوطة يقول: " نزلنا جزيرة ابن عمر – وهي في تركيا الآن - ويوم نزلنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب الله عز وجل،

---

[١] - هود: ٤٢
[٢] - هود: ٤٣
[٣] - هود: ٤٤
[٤] - ص ٢٠ بدائع الزهور
[٥] - ص ٩ تاريخ مختصر الدول
[٦] - ص ١٧٠ رحلة ابن جبير
[٧] - ص ٣٩٦ ج١ مروج الذهب
[٨] - ص ٥٠ عرائس المجالس
[٩] - ص ٥١ ج١ مروج الذهب

الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، وهو جبل عال مستطيل "[1]، ولا بد لوجود السفينة أعلى الجبل أن يمد الذاكرة إلى عصور وعصور، ومن هذه الذكرى كثرت أساطير الطوفان فيما بعد عند السومريين والبابليين والكلدانيين، حتى اشتبكت لديهم أخيراً الذكريات بالتهيؤات بالخيالات، حتى جعلوا من أسلافهم أو آلهتهم أبطال الطوفان ورجاله.

إن مكان قوم نوح لم يكن قطعاً في بلاد ما بين النهرين، وإن كان رسوها على جبل الجودي الذي قرب البصرة، فلا بد أنها قد أتت من مكان بعيد، وكيف لا؟ إن كانت " تجري بهم في موج كالجبال "، حتى وصلت إلى مكان رسوها، ولهذا السبب نجد تعدد أساطير الطوفان بين الأمم فيما بعد، كذاكرة عن المأخوذ شفاهاً من ذرية نوح الأوائل، أو عن السفينة الماثلة في أعلى الجبل.

- المحمول في سفينة نوح: ببدء الطوفان وظهور علامته، كان أمر الله لنوح : " أحمل فيها من كل زوجين إثنين "، والمقصود بالطبع هي الحيوانات والطيور الضرورية للغذء البشري، حيث انعدام الزراعة بفترة الطوفان، وبقصد انقاذها من هذا الهلاك المدمر، وبالطبع لما يخشى هلاكه، لا لكل الحيوانات والطيور، واللافت عند علماء الحياة هو إجماعهم

---

[1] - ص ٢٥٦ ج١ رحلة ابن بطوطة

على انقراض الماموت بشكل مفاجئ، وهل لنوح القدرة على وضع زوجين منهم في سفينته؟ فإن لم يكن فقد انقرض الماموت بالغرق ولا علة غامضة عند إذن، والله أعلم.

ـ الطوفان والأساطير:

في الصين " " يو العظيم " بطل الطوفان الأول هو الجد المزعوم لأسرة تسو "[1]، والهنود تحدثوا في أساطيرهم عن الطوفان: " ومانو الذي يعتبر " نوح " الهندي، هو الإنسان الأول الجد الأعلى للبشرية، والإله فيشنو الذي يتجسد في صورة سمكة هائلة، هو الذي نجى البشر من الفيضان "[2]، كما " تتناقل قبائل البرازيل حكاية طوفان عظيم، وكذلك قبائل غينيا البريطانية، وأمريكا الوسطى والشمالية، وبعض القبائل الأوروبية، وفي أسطورة هندية أن فيضاناً غمر العالم ولم ينج منه سوى رجل وامرأة كان على أعلى قمة، وبعد انحسار الفيضان، أصبحا يرتجفان من البرد، فعطف عليهما أهل القمر، فأرسلوا لهما ناراً تدفئهما "[3]، وفي بلاد ما بين النهرين، كثيرة هي الأساطير التي تحدثت عن الطوفان.

الطوفان عند السومريين: تقول أسطورة زيوسودرا التي عُثر عليها في خرائب مدينة " نفر السومرية ": أن الآلهة قررت إفناء البشر بالطوفان، فاعترضت هذا القرار إلهة الخصب والحب " أنانا "، فراحت تبكي وتنوح، أما الإله " أنكي " إله الحكمة، فقد قرر إنقاذ بذرة الحياة على

[1] ـ ص ٢٧٨ المعتقدات الدينية لدى الشعوب
[2] ـ ص ١٥٣ الفكر الشرقي القديم
[3] ـ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ مغامرة العقل الأولى

الأرض فتحدث بالحلم أو من وراء حجاب مع الملك الصالح زيوسودرا وأمره ببناء سفينة للنجاة من الطوفان، وبانتهاء الطوفان كوفئ زيوسودرا بإعطائه نعمة الخلود، والسكن في الجنة، في أرض دلمون ونُعت بحافظ بذرة الحياة.

أسطورة أتراحيس البابلية: لقد تكاثر البشر كثيراً وازداد صخبهم مما أزعج الإله أنليل الذي لم يعد قادراً على النوم بهدوء، فشاور الآلهة من أجل القضاء عليهم، فأرسل عليهم الأمراض من ملاريا وحمى وغير ذلك، ومنع الثمار عن الأشجار وأغلق الأرحام عن الولادة ولم يجد ذلك نفعاً، حتى كان الطوفان المدمر ولولا الإلهة أتراحيس التي جددت خلق البشر بأرحام طينية، ما كان للبشر بعدها من وجود.

أسطورة بيروسوس: تحكي هذه الأسطورة التي رواها الكاهن بيروسوس في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، قصة طوفان حدث زمان الملك البابلي أكسوثروس، فقد أوحى الإله كرونوس حلماً لهذا الملك يعلمه بحدوث طوفان مدمر وأمره ببناء سفينة لينجو بها مع عائلته وأقرباءه ويحمل إليها مما يطير في السماء ومما يدب على الأرض، وبإنتهاء الطوفان استوت على أحد جبال أرمينيا، وكوفئ أكسوثروس وزوجته وابنته وملاح سفينته بأن رفعوا ليعيشوا خالدين مع الآلهة.

أسطورة أوتنبشتايم: لقد قرر الآلهة بزعامة أنليل القضاء على البشر، ولكن الإله " إيا " انطلق إلى أوتنبشتايم في كوخه، لإعلامه بقرار الآلهة، ثم أمره ببناء سفينة، وأن يحمل إليها بذرة كل ذي حياة، من أجل نجاته ونجاة الحياة على الأرض، وحمل إليها ما لديه من فضة وذهب، وكل أصحاب الحرف، وببدء انهمار المطر الغزير كعلامة على بدء الطوفان أسلم قيادتها إلى الملاح بوزور – أموري، وبانتهاء الطوفان استقرت السفينة على جبل نصير، وبحضور الآلهة على قربان النجاة، قال أنليل: ما كنت يا أوتنبشتايم إلا بشراً فانياً، ولكنك وزوجتك منذ الآن ستغدوان خالدين، وعند فم الأنهار في الجنة ستعيشان.

ـ أسطورة ديكاليون: وللأغريق أسطورتهم التي ربطت بين الطوفان وأصل نسبهم، تقول الأسطورة: لقد فسد البشر وعصوا الآلهة، فقرر كبير آلهة الأولومب زيوس أو زفس تدمير الحياة على الأرض بالطوفان، وبحبه لأهل التقوى، أمر ديكاليون التقي ببناء سفينة لنجاته وزوجته " بورا "، وبانتهاء الطوفان استقرت على قمة جبل البارناسوس، وباللقاء مع هرمس رسول زيوس، اشتكيا إليه العزلة، فأمرهما بإلقاء الأحجار الصغيرة خلفهما، وإذ بها قد تحولت إلى بشر من الرجال والنساء، ثم أنجبا ولدهما هيللين الذي ينتسب إليه اليونانيون عامة، وبتتالي التناسل من أولاده

وأحفاده كانت القبائل اليونانية الأربع: الدوريون، الأيوليون، الأيونيون، الأخائيون. واليونانيون بالتالي هم الناس والباقي حجارة.

ـ التوراة وطوفان نوح:

ـ سبب الطوفان: أبناء الله تزوجوا بنات الناس، فكان الطغاة والجبابرة " ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض... فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه، فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته "[١] وكل ذي حياة، واختار الرب نوح لينجيه من الطوفان: " لإني أياك رأيت باراً لدي في هذا الجيل "[٢]، وأمره ببناء الفلك، وحدد له أبعاده، شكله، أبوابه وغرفه : " وهكذا تصنعه ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه... "[٣].

ـ حمولة السفينة: طعام، أقارب، حيوانات وطيور: " فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك، ومن كل حي من كل ذي جسد إثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقاءهما معك.."[٤]

---

[١] ـ تكوين ٦: ٥ ــ ٧
[٢] ـ تكوين ٧: ١
[٣] ـ تكوين ٧: ١٣ ــ ١٦
[٤] ـ تكوين ٦: ١٥ ــ ٢٠

- عمر نوح: " ولما كان نوح ابن ست مائة سنة صار طوفان الماء على الأرض "[١]، " وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مائة وخمسين سنة، فكانت كل أيام نوح تسع مائة وخمسين سنة ومات "[٢].

- مكان هبوط السفينة: " واستقر الفلك... على جبال أراراط "[٣].

وبنجاة نوح قدم قرابينه من الحيوانات التي معه، فرضي الرب عنه " وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان.... ولا أعود أميت كل حي كما فعلت "[٤].

- مقارنة عناصر الطوفان بين القرآن والتوراة والأساطير: وهي كما يلي:

١ ـ المعارضة: الأساطير تقول بوجود آلهة تعارض قرار آلهة أخرى، إلهة الخصب في أسطورة زيوسودرا من المعارضة، وبالمعارضة أنقذ أنكي البشر، وفي أسطورة أتراحيس، جددت أتراحيس خلق البشر بأرحام من طين معارضة لقرار الآلهة، وفي أسطورة أوتنبشتايم: الإله " أيا " عارض قرار الآلهة، أما التوراة فقد استعاضت عن فكرة المعارضة ثنائية

---

[١] - تكوين ٧: ٦

[٢] - تكوين ٩: ٢٨ ـ ٢٩

[٣] - تكوين ٨: ٤

[٤] - تكوين ٨: ٢١

الأطراف، وطالما قالت بالتوحيد، بندم الرب، فالندم بمثابة المعارضة في الأساطير، أما في القرآن فلا معارض لله ولا ندم له سبحانه وتعالى.

٢ – سبب الطوفان: انزعاج الآلهة من صخب البشر على الأرض، انتشار الشر والفساد، هذا ما تقوله الأساطير والتوراة، أما القرآن القائل بنبوة نوح، فسبب الطوفان هو دعاء نوح على قومه الذين كذبوه وكفروا به، أما التوراة فقالت أن الله اختار نوح لبره فأمره ببناء السفينة، وفرق كبير في هذا بين القرآن والتوراة.

٣ – وجود الملاح في السفينة: لقد وُجد الملاح في أسطورتي بيروسوس وأوتنبشتايم، ولا ملاح للسفينة في القرآن والتوراة، وهذا معناه أن كل أسطورة قالت بوجود الملاح في السفينة فصياغتها بالقطع قد تمت في مراحل متقدمة، حيث انتشار صناعة السفن، وانتشار التحكم بمسيرها، من قبل مختص يسمى الملاح، ومما يشهد على هذه الحداثة في أسطورة أوتنبشتايم أن الذهب والفضة كانا منتشرين كعملة وقيمة في التداول بين الناس وهما مما حمل إلى سفينته، إضافة إلى حمل أصحاب الحِرف، حيث أن البشر لم يصبحوا على حرف ذات اختصاص إلا في مراحل متطورة ومتقدمة جداً.

٤ – مكافأة الناجين وعمر نوح:

نوح من حقبة المعمرين، ففي القرآن لبث في قومه ٩٥٠ سنة، فعمره أكثر من ذلك، وعمره في التوراة حتى مات ٩٥٠ سنة، والعمر المديد لا بد محفوظ في الذاكرة، وحيث لا وجود لهذا العمر في البيئة التي صنعت تلك الأساطر جعلوا الخلود الخلود عوضاً عنه، فـ " زيوسودار كوفئ بالخلود في جنة دلمون، والناجين في أسطورة بيروسوس رفعوا إلى السماء ليعيشوا خالدين، وأوتنبشتايم كوفئ بالجنة والخلود "، وكل أسطورة فيها مكافأة بخلود الناجين، فهي مستحدثة، وبفعل الذاكرة التي تشوهت كانت المساواة بين الخلود والعمر المديد، أما في التوراة فالمكافأة أن قطع الرب على نفسه عهداُ بعدم تكرار هذا الحدث المريع.

٥ ـ مكان استواء السفينة:

سفينة أوتنبشتايم استقرت على جبل نصير " أي جبل الخلاص، في جنوب نهر الزاب الأدنى، وهو أحد روافد الدجلة "[١]، وفي أسطورة بيروسوس، استقرت على " جبال أرمينيا، وفي التوراة على جبل " أراراط "، وأراراط في الواقع ليس أسماً لجبل بل هو أسم يطلق على بلاد أرمينيا. والقرآن هو الوحيد الذي حدد بالضبط جبل الجودي التي استقرت

[١] ـ ص ١٧٨ مغامرة العقل الأولى

عليه سفينة نوح، وكل الذكريات فيما بعد قد حامت حوله وعليه والقرب منه على التعميم.

أساطير بلاد النهرين، كلها زعمت أن الطوفان قد حدث على سكان ما بين النهرين، وهذا ما كذبه القرآن، وليس أحداً بالأساطير أو التوراة قال بأنها ارتفعت عامودياً إلى الجبل الذي استقرت عليه، وهذا أمر لا يعقل خاصة باتفاق كل المصادر على مكان استقرارها بعد الطوفان، وبناء عليه: فكل تلك الأساطير منحولة عن الحدث الأساس، ومشوهة بفعل التذكر الفاصل ما بين زمن نوح وزمن التدوين لهذه الأساطير، وفي أسطورة أكستروس من جهة أخرى، أنه قبل الصعود إلى السفينة طمر الألواح التي دونها عن البدايات، أي أن الطوفان بزعمها قد حدث في عصر التدوين أو الكتابة، وهو حديث جداً، ولو حدث الطوفان في هذا العصر، لجاء وصفه كتابة كما حدث بالضبط، ودونما وجود لتعدد الآلهة، إن كانت الأسطورة تخص نوحاً من قريب أو بعيد.

ـ الأساطير والتكوين:

كل الأساطير التي تحدثت عن التكوين أو الخلق والإيجاد، قد اعتمدت على مبادئ أساسية لا غنى عنها، فالخلق يساوي التوالد، ولا جديد إلا عن طريق الزواج، ولا خلق ولا جديد من عدم، وقد تكون هيولى التكوين عن إله مقتول، استخدمته الآلهة لصنع ظواهر الطبيعة، والمادة الأولى عند السومريين هي المياه الأولى أو الإلهة " نمو" التي أنجبت " آن " إله السماء و" كي " إلهة الأرض، علماً أن نمو وآن وكي، كانوا قبل الإنجاب في وحدة كاملة، أو أن نمو هي آن وكي، وبالزواج بين آن وكي، ولد الإله " إنليل " إله الهواء أو الهواء، وحيث لم يصبر على سجنه بينهما، رفع أباه عن أمه، وهكذا أصبح آن إله السماء أو السماء، وكي إلهة الأرض أو الأرض، والهواء أو انليل بينهما. وبالزواج بطريقة الاغتصاب بين " انليل " و" ننليل " كان إنجاب القمر أو إله القمر " نانا "، ونانا بعدها أنجبت الشمس أو إله الشمس " أوتو " ثم تابع انليل زواجه من ننليل وكان منهما " نرجال " إله العالم الأسفل، ثم تابع الإله " أنكي " إله الحكمة والماء العذب ما بدأه أنليل، فملأ النهرين بالماء وأوكل أمرهما إلى الإله " أنبيلولو "، ونظم شؤون البحر، وأوكل إدارته إلى الإلهة " سيرارا "،

وهكذا مع إله الأمطار " أشكور "، وإله السواقي " أنكمدو "، وإله البناء " شداما "، وإله الزراعة " سوسوتان " وإله الرعي " دموزي ".

وعند البابليين حسب أسطورة " أينومايليش " نجد أن " الهيولا " هي الإله " أبسو " أو الماء العذب، والإلهة " تعامة " أو الماء المالح، والإله " ممو " إله الضباب أو الضباب. والكل على امتزاج كامل ويعيشون في سبات من السكون والصمت، وبالزواج بين " أبسو وتعامة " أنجبا " لخمو " و" الخامو " وبالزواج بينهما كان " انشار وكيشار " وبالزواج بينهما كان الإله " آنو " إله السماء وبزواج آنو أنجب " أنكي وأيا " إله الحكمة والمياه الباطنة العذبة، وبكثرة الإلهة الصغار انزعج آلهة العماء بزعامة أبسو فقرروا القضاء عليهم، وقرر الآلهة الصغار أو الشباب مقاومة آبائهم بقيادة " أيا "، وبتعويذة سحرية من " أيا " جعل " أبسو " يغط في النوم فقتله، وأسر كبير أعوانه " ممو " ليذهب به حيث ذهب، وأصبح " أيا " إله الماء الجوفي العذب، وبالزواج بين " أيا وأنكي " أو " دومكينا " وُلد " مردوخ " كأعظم إله للبابليين، فحمل راية الصراع لآبائه، فقتل " تعامة " وشق جثتها قسمين، الأول جعله سماء والثاني الأرض، ومن لعابها خلق الضباب، ومن رأسها التلال، ومن عينيها

النهرين، ومن ثدييها الجبال، ثم خلق النجوم والشمس والقمر، ثم خلق الإنسان من دم ولحم الإله " كينغو "، لراحة الآلهة وتأمين سُبل عيشهم.

وفي أسطورة مصرية للخلق عن طريق إله واحد، أن " آتوم " الذي معناه الواحد الكامل قد خلق نفسه، أوجد ذاته، من عماء المياه " نوت " وظهر فوق تل، ثم أنجب عن طريق السعال أو الإستمناء أو البصاق أو العطاس الإله " شو " الهواء، والإلهة " تفنت " أو الرطوبة، وبالزواج السري بين إلهة السماء " نوت " وإله الأرض " جب "، كان غضب كبير الآلهة، مما أدى به إلى إرسال " شو " للفصل بينهما، وهكذا انفصلت السماء عن الأرض.

ومن التصورات الأخرى عند المصريين أن " الأرض كطبق مسطح له حافة مموجة، وفوق الأرض قِدر السماء المقلوب، وقوائم أربعة مغروسة في الأرض، لتحمل ثقل السماء، كما مثلوا السماء ببطن بقرة سماوية، مرصع بالنجوم، وجبال " قاف " التي تحمل السماء، شهيرة ولا تخفى على ذوي الإسرائيليات في البيئة الإسلامية.

والملاحظ أيضاً أن المياه الأولى للخلق قد اعتُمِدت في أغلب الأساطير، فإضافة إلى " نمو " عند السومريين، و" تعامة " عند البابليين، هي أيضاً " يم " عند السوريين، و" رع " عند المصريين، و" أوقيانوس

" عند اليونانيين " أما وأن الخلق عن قتلى من الآلهة، فقد قتل العملاق " ايمير " من أجل الخلق عند الجرمان، كما قُتل " بورشا " عند الهنود، و" بانكو " في الصين "[1]، وفي أسطور إسكندانافية تم خلق الكون من أشلاء العملاق الكوني " يمر "، وفي أسطورة أخرى من أمريكا الشمالية، تم خلقه من أشلاء الإلهة " تياتيولتي"[2].

فأساطير التكوين كما هو ملاحظ تعتمد على ثلاثة محاور رئيسية: المادة الأولى للخلق سواء كانت ماء أو جثث لقتلى من الآلهة، ثم تفسير وجود السماء في الأعلى والأرض في الأسفل واستخدام الزواج لإيجاد الظاهرات. وبمجيء الإسلام كديانة أحيت التوحيد من جديد، وحيث لا مكان للأساطير مع التوحيد، نفى كل ما كان معتمداً في بنود الخلق والإيجاد، فقد كان الله ولا شيء معه، لا ماء ولا أي شيء، وبالكلمة كان الخلق: " **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** "، والسماء مرفوعة بغير عمد ترونها، وأعمدتها قوانين: " و**كل في فلك يسبحون** "، فلا زواج بين الآلهة ولا توالد لإيجاد الظاهرات، ولا قتيل إلهي أو عملاقي للتكوين، فليس إلا الله وحده الخالق بأمره لا شريك له سبحانه.

---

[1] - ص ٥٤ المفدس و الدنيوي

[2] - ص ٢٠٢ لغز عشتار

- الأساطير والقدر:

الأسطورة ذات مهام وأغراض، ومن بعض أغراضها تكريس عقيدة ما من العقائد، وقضية القدر شرحها وبيان طبيعتها، قد احتلت جانباً ليس باليسير في الفكر الأسطوري، فالإعتقاد بالقدر أمر أساسي لكل تلك الحضارات السحرية التنبؤية، حتى معابدهم لا قيام لها دون الكهانة والسحر والتنجيم، وكل ذلك بالطبع على علاقة مباشرة بقضية القضاء والقدر.

إن للآلهة في بابل مجلس يجتمعون به، في مطلع كل عام بالعيد، عيد " مردوخ " الكبير، لتقرير مصائر البشر والآلهة، والإله " نابو " هو الذي يدونها على ألواح من الطين، وألواح القدر هذه محفوظة من السرقة أو تبديل ما فيها، ومن يطمع في ملكها فهو الطمع بالمحال، وقد سرقها من قبل الخليقة الطائر الجبار " زمر " ولكنها عادت وباءت المحاولة بالفشل،

إلا أن الإله البابلي " مردوخ " الجبار في صراعه مع الإلهة " تعامة " التي أعطت ألواح القدر إلى الإله " كينغو " استطاع أن يقتله، وبإرساله إلى الموت استحوذ على ألواح القدر، وبما أن القدر يعني ما سوف يقع في الزمن القادم من أحداث، استخدم القمر من حيث هو رمز للزمن، للإشارة إلى القدر، وربات القدر في بلاد الرافدين يظهرن " واقفات على تيس ذي قرنين كبيرين، وفوقهن يتوسط الهلال "[1]، ومن الشبه ما بين عمل المغزل والنسج، وما سيكون في الزمن نعتت ربة القدر بـ" النساجة " أو " الغزَّالة "، وقد أكدت الأساطير أنه لا مهرب للآلهة أو البشر من حكم القدر، الذي لا بد نافذ، وعند الإغريق أن أحد الآلهة أخبر زيوس بأن زوجته " ميتس " الحاملة منه، سوف تلد ولداً يكون أعظم شأناً وأقوى منه، فقام بابتلاع زوجته، ليحول دون تحقق النبوءة، فانتابه صداع شديد، مما اضطره إلى الإستعانة بإله الحدادة " هفايستوس "، ومن أجل الشفاء ضربه بفأس على رأسه وبانشقاقه خرجت منه " أثينا " ربة الحرب وحامية المدن، بكامل لباسها وأسلحتها الجبارة، وباءت محاولة أبيها بالفشل، فالقدر لا بد واقع، ولا مهرب من حكمه. والإله " آريون " ابن " بوسيدون "، كان محباً للسفر، وإذ بنبوءة تقول له: إن سافرت إلى أي مكان فليس من سفينة تعيدك

---

[1] - ص ٩٦ لغز عشتار

إلى بلدك، ولكنه سافر وهو شاك ولا مكترث، بعد أن أهداه أباه قيثارة ذهبية، وحيث وصل غنى وعزف الموسيقا، فانهالت عليه الهدايا من الذهب والجوهر، وبعودته ركب سفينة فطمع ملاحها بما لديه، وقبل أن يقتله طلب منه العزف والغناء فاجتمعت الدلافين طربة، ولما توجس الخطر، رمى بنفسه في البحر، فحمله دلفين على ظهره وأعاده إلى بلده قبل أن وصلت السفينة، وبوصولها شنق الملاح وبحارته، وهكذا تحققت النبوءة حيث عاد إلى وطنه دونما سفينة تقله إليها. ولما مات " آريون " أرسله الإله " أبولو " والقيثارة والدلفين إلى السماء، وما زالوا جميعاً يسمون " كوكبة آريون"، فإضافة لتكريس عقيدة القدر، تم تزويد الأسطورة بما هو ضروري لإيجاد الشبه، مع مجموعة من الكواكب لتفسير وجودها أو نشأتها.

وفي أسطورة أخرى أن الإله " كرونوس " قتل أباه " أورانوس " طمعاً في الملك، حتى صار ملكاً على الآلهة، وبينما كان " أورانوس " يحتضر تنبأ لولده القاتل بأن واحداً من أبنائه سينتزع العرش منه، ولمنع النبوءة ابتلع " كرونوس " أولاده فغضبت زوجته " ريا " التي هي أخته، وباحتيالها عليه جعلته يتقيأ أولاده، فأخذت " زيوس " فأودعته عند راع،

ولما شب صارع أباه، وأصبح ملكاً على الآلهة، فتحقق حكم القدر وصدقت النبوءة، وكما تدين تدان.

وأسطورة " ميدوسا " تدور فحواها هي الأخرى على نفس النمط، فقد قالت النبوءة من معبد دلفي إلى أكريسيوس، ملك أرغوس: سيأتي لابنته " دانائي " ولد سيقتله في يوم من الأيام، فسجنها في قفص من نحاس انتظاراً لموتها، ولكنه ذهل لما رآها ترضع طفلاً بين يديها من " زيوس " سمته " بروسيوس " أو المنتقم، فأخذها وابنها إلى قارب قذفه في اليم، فوصل القارب إلى الملك " بوليدكتس " ملك جزيرة سفيروس، فطمع في الزواج منها، وأعلن بأنه سيخطب إحدى الأميرات، فقدمت الهدايا إليه، ولكن لا شيء عند بريسوس يقدمه كهدية، فوعد الملك أن يقدم له رأس " ميدوسا " هدية له التي ما رآها أحداً إلا تحول حجراً، ففرح الملك لأن سعيه لقتل " ميدوسا " لا بد فيه الهلاك الأكيد، وبذلك يتخلص من العقبة الأكبر التي تمنع زواجه من أمه " دانائي "، ولكن " هرمس " نصح " بريسيوس " بالذهاب إلى الشمطاوات الثلاث، وبذهابه إليهن نصحنه بالتوجه إلى الحوريات الثلاث بنات أطلس، وبذهابه إليهن زودنه أيضاً بالأسلحة اللازمة وبطاقية الإخفاء، وبعد أن قتل " ميدوسا " عاد إلى أطلس الذي يحمل السماء، فأراه رأسها فانقلب جبلاً، هو المعروف اليوم بجبل

أطلس، وبطريق عودته رأى أن بنت الملك سيفيوس، أندروميدا قد تم تجهيزها قرباناً للوحش الهائل، فقام على الفور وقتل الوحش، فنجت الفتاة ثم اتخذها زوجة له، وبعودته إلى أمه وجد الملك بوليدكتس في حفل زفاف عليها، ولما حاولوا قتله واجههم برأس " ميدوسا " فمسخوا حجارة، وكان جده " أكريسيوس " من جملتهم فتحققت النبوءة، وهمست " دانائي " بأذن ولدها " بريسيوس " إنها الآلهة ! رغبتهم لا تقاوم، وأهواؤهم هي أقدارنا "[1].

وعلى حيثيات الإعتقاد بالقدر حسب ما تمليه الأساطير، اضمحل الدور البشري في التاريخ، حتى لم يعد يذكر، وكل الأحداث، اعتباراً من سقوط مدينة بيد الأعداء أو النصر على الأعداء مثلاً، كل ذلك من فعل الآلهة، ولا علاقة لهذا وأمثلاله بإرادة الإنسان أو بالعوامل التي تحيط بالحدث، فالجيوش الغازية وجه من وجوه العواصف التي للإله أنليل الغاضب على رعاياه أو المنفذ لأوامر مجمع الآلهة، وما النصر إلا انتصار الله بالمعنى الحرفي.

[1] - ص ١٣٣ ميثولوجيا الأبطال و الآلهة

ـ الدور التربوي للأساطير:

" لقد ورد عن " هوميروس وهزيود ": أن الآلهة تفعل كل الأمور التي يعتبرها الناس مخجلة: كالفسق والسرقة والخداع "[1]، ورغم ذلك لم تخل الأساطير من الدور التربوي، ولكن بالمعنى الأسطوري وطريقته، وعند السومريين أسطورة تقول: أن بستانياً أسمه " شوكاليتودا "، رأى في بستانه الإلهة أو الكاهنة " أنانا " وهي نائمة، فقبلها ثم ضاجعها، ولما طلبت الإنتقام ملأت آبار البلاد بالدم، فتلفت المزوعات وعم الجوع والعطش، ولما عجزت عن التعرف إلى الذي اغتصبها، استخدمت الرياح والعواصف المدمرة، حتى دمرت كل شيء. والقصد: أن من اعتدى على امرأة تقبيلاً أو اغتصاباً فلا بد معاقب، أو لا بد للعقاب الجماعي أن يقع. وربات الإنتقام عند الإغريق أو كلبات الجحيم " كن إذا وقعت جريمة تواجدت في مكانها بلمح البصر، وقد تحول شعرهن إلى أفاع، وتسلحن بالمشاعل والسياط، فيطاردن المجرم لإرساله إلى الجحيم، حيث يتابعن مهمة تعذيبه هناك "[2]. ومن سولت له نفسه ارتكاب جريمة ما، فليحسب ألف حساب لكلبات الجحيم التي لا تقهر.

[1] ـ ص ١٨٧ ملامح من الأسطورة
[2] ـ ص ٢٢٦ لغز عشتار

الملك " ميداس "، نهم جداً، ولا قيمة لديه إلا للذهب، طلب من الإله " أبولو " أن يحول له كل ما يلمس إلى ذهب، ومكراً به استجاب لطلبه " أبولو ": لمس الأزهار، ابنته، كل ذلك تحول إلى ذهب، والطعام الذي لمسه أصبح ذهباً في فمه وكاد أن يموت، فندم وطلب المغفرة، فأعاده أبولو إلى ما كان عليه، ولكن لغباء أمنيته عاقبه بأن جعل أذناه أذنا حمار، فأخفى الملك أمرهما إلا عن الحلاق " ميداس "، حيث خيَّره بين الموت وإفشاء هذا السر، وبألم " ميداس " من كتمان السر، ذهب إلى البرية، ثم راح يردد: أذنا ميداس أذنا حمار، فانتقل الصوت إلى كل الناس، وعلم الملك بالأمر، ولكنه لم يعاقبه بل عفا عنه، فكافأه " أبولو " بأن أعاد إليه أذناه وهو يقول " فكما صنعت صُنع بك "[١]. فالذهب ليس كل شيء، وحمل السر عبء ثقيل، ومن أفشاه لنفسه، فقد يصل إلى غيره.

" بجماليون " فنان، نحات تماثيل، ومن حبه لعمله وفنه، استغنى عن النساء، فشكته نساء قبرص إلى إلهة الحب والجمال " أفروديت "، عله يقع بحب إحداهن، ولكنه طلب أن تكون الإلهة زوجة له، ولما تعللت بالمحال، طلب منها أن تحوله إلى تمثال يعانق تمثال " غلاطيا " الذي صنعه على شبه بها، فاستجابت له، بل وقامت بتحويل تمثالها إلى فتاة

---

[١] - ص ١٩١ ميثولوجيا الأبطال و الآلهة

حية، يتزوجها، وبعذاب من الضمير قالت أفروديت: " فأخشى ألا ترتل لي نساء قبرص أناشيد المديح بحماسة لبعض الوقت "[1]. أي: فالفنان المتفاني في خدمة الآلهة، لا بد للآلهة أن تكافئه.

الحصول على القوة واحراز النصر، فن قائم بذاته، ومن راعى قوانينه، لا بد ينتصر، و" تسيوس " ابن ملك مقهور بأبناء عمه الأقوياء لصغر حجمه، ولكن النورس علمه قاعدة تقول: إن وقع الجسم الخفيف فلا ضرر عليه، أما الثقيل فعليه كل الضرر، لا تخف من حجم عدوك واجعل حجمه سلاحاً في يديك، فادفعه حيث اندفع ثم أجهز عليه، وبهذه القاعدة انتصر على " كورنيتس " حامل الهراوة، مرعب المسافرين، وعلى " سيرون " صاحب البلطة والسلحفاة التي أعدها لأكل ضحاياه، وعلى " بروكروست " قاطع الطريق بسريره، وعلى " المينوتور " الذي نصفه ثور ونصفه الآخر إنسان، آكل الضحايا البشرية، ولما عاد إلى مدينته أثينا انتصر على أبناء عمه الأقوياء. فالقوة إذاً فن، وما هي بالعضلات وضخامة الحجم وقوة السلاح.

" نرسيس " أجمل فتى وجد على الأرض، أحبته " ايكو " حورية النهر والغابة لما رأته، فحاولت أن تقبله، فدفعها عنه، حيث آل على نفسه

---

[1] - ص ٢٠٠ نفسه

ألا يحب أحداً إلا إن كان بجماله، فشكت أمرها إلى أفروديت، التي عقدت العزم على أن تثأر لها، ولما جلس إلى ينبوع ماء رأى صورته، فأعجب بها ظناً منه بأنها الحورية التي يطلبها فعشق ذلك الوجه، جاهلاً بأنه وجهه، وكلما مد يده اضطرب الماء وتلاشى الوجه، حتى لم يعد قادراً على الفراق، فغاصت ساقاه في ضفة النهر، وبمرور الزمن صارت جذوراً لزهرة النرسيس أو النرجس، التي نمت بانحناء على ضفاف الأنهار، كأنها تراقب صورتها في الماء، وأصبحت لفظة نرجسي عند علماء النفس المعاصرين مصطلحاً للتعبير عن الإعجاب المرضي بالنفس أو الذات. ومن أعجب بنفسه فسوف يبقى وحيداً إلى الأبد هذا ما تقوله الأسطورة.

وُلد لملك " أركاديا " طفلة أسمها " أطلنطا " وضعها في البرية لتموت، تبنتها دبة، فأرضعتها وربتها، وكان لملك " كاليدونيا " طفل أسمه " مليغر "، فقالت إحدى الربات لأمه: أن الحطبة التي تحترق هي حياة " مليغر "، فأخذت أمه الحطبة وخبأتها في سفط من النحاس حفاظاً على حياته، مليغر عازف عن الزواج إلا بمن تضاهيه قوة، ولما طعن دباً ذات مرة، صارعته " أطلنطا " ثأراً لأخيها الدب ولما وجدها قوية، أحبها حباً جماً، ولما عارض خاليه هذا الزواج قتلهما، وبكل ما لأمه من غضب، تناولت الحطبة من السفط وأحرقتها، فمات ولدها مليغر. فمن تزوج دون

الرضا من أهله فالهلاك مصيره، والمرأة بذويها، فإن لم تنتصر لهم فلا كرامة لها.

ـ أسطورة لدلول وأيوب ومشكلة الشر عند البابليين:

من منطق التشابه بين أسطورة " لدلول " وقصة أيوب في التوراة، أو من وحدة الموضوع بينهما الذي هو الصبر، زعم البعض أن " لدلول " هو أيوب، أو أن قصة أيوب منتحلة من أسطورة لدلول.

ثلاثة مبادئ عقائدية عند البابليين في مجريات هذه الأسطورة، الأول: أن الإنسان مخلوق لخدمة الآلهة، فإن أخلص في خدمتهم جعلوه سعيداً في حياته، وإن خذلهم أو تقاعس عن خدمتهم فلا بد لهم من عقابه. والمبدأ الثاني يقول: أن الإنسان مخلوق من دم ولحم الإله الخائن أو الخاطئ، وحكمة بابل بناء عليه: أنه لم يولد طفل بغير إثم أو بغير خطيئة، والحكمة السياسية التي تحكم العلاقة بين الإنسان والآلهة أو الملوك كمبدأ ثالث، تقول بوجوب الطاعة المطلقة للآلهة، فلا تساؤل للإنسان عن مبررات أفعالهم ، وكل أفعالهم حكمة وإن خفي عليه إدراكها، وما الصبر عندها إلا لامتحان قدرة الإنسان على الصمت وعدم التذمر أمام واقع هذه الحكمة.

لقد كان لدلول من الشرفاء المقربين للملك، وكان مخلصاً للآلهة، صالحاً تقياً، يقدم القرابين والصلوات لهم، يأتمر بأوامرهم وينتهي عما نهوا عنه، وبالحسد أو الغيرة تآمر عليه رجال البلاط، فغضب عليه الملك،

فطرده أو عزله عما كان له من سلطان، وأصبح كخرقة بالية في نظر عبيده وأقاربه، ولطمته الأمراض من كل جانب، فقد تخلت عنه الآلهة وأصبح دعواته غير مجابة، ولما قارن صلاحه بفساد أعدائه اعتراه حزن مرير، فكيف للآلهة أن تتخلى عن الصالح لتقف مع الشرير؟ ذهب إلى العراف، إلى كاهن الأحلام، إلى المعزِّم، إلى طارد الأرواح الشريرة، جميعهم فشلوا وعجزوا عن إرضاء الآلهة وإزالة الأمراض، فاعتراه اليأس والقنوط، وانقطع حبل أمله ولم يبق له إلا الإستسلام لمصيره المحزن والصبر على ما آلت إليه أحواله، ولكن للآلهة خطط وحكمة وأسرار خفية لا تُدرك، ولاحت في الأفق أخيراً تباشير الفرج، فرأى خمسة أحلام، كلها بشرى برضا الإله " مردوخ " عليه وبالشفاء من الأمراض، واستطاع الكاهن طرد الصداع إلى العالم السفلي والسعال إلى " أبسو "، والشيطان " لامشتو " إلى الجبل، والمغص إلى البحر المتلاطم الأمواج، فوقف على قدميه تارة أخرى، وشفي من كل أمراضه، ورضي عليه الملك، فعاد كما كان، وبالشكر للآلهة قرب لها القرابين: ذبائح، عطور، بخور، جعة معسولة، وأقام الصلوات وأكثر من الدعاء.

إن في أسطورة لدلول أو " شوبشي " مقارنة بقصة أيوب، أنها مبنية على تعدد الآلهة، وحيث لا آخرة يتم فيها الفصل بين الخير المطلق والشر

المطلق، كان رفع التناقض بين إبتلاء التقي ونجاح الشرير عن طريق الجهل بالأسباب والتسليم لإرادة الآلهة وحكمتها، ولا بد للآلهة أن تنتصر للتقي في نهاية المطاف، فالصبر والتقوى صنوان لا فرق بينهما إلا في دوام التقوى والصبر على البلوى، وفحوى القصتين في هذا سواء، وقد قال تعالى عن أيوب: " **إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب** "[١]، أما شفائه كما ورد في القرآن، فليس عن أحلام وكهنة وطرد أمراض إلى أماكنها، إنما عن علاج مادي: " **أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب** "[٢]، وربما، وأقول ربما، ودون الرجوع إلى متى زمان أيوب وزمان لدلول، أن قصة لدلول هي قصة أيوب، ولكن الشاعر قد صاغها تبعاً لثقافة البيئة التي يعيش فيها، لرواجه أولاً، ولتجاوز التوحيد الذي لم يكن على ما يبدو إلا طفرة أمام استمرار الثقافة الطاغية لتلك البيئة.

ومن الملاحظ أن الدور التربوي أو الخلقي للأساطير بقي عاجزاً عن تحقيق بنية الفعل الخلقي، حيث هناك سبيلين لإيجاد الفعل الخلقي: إما القول بالفعل بلا ثمن أو مقابل، كواجب " كنط " وشذرات رابعة العدوية وأمثالها، أو القول: بالثواب والعقاب في الآخرة كثمن وجزاء لفاعله، بعد

---

١ - ص: ٤٤
٢ - ص: ٤٢

الموت. أما الأساطير فلا وجود فيها للواجب بذاته، كما لا وجود فيها للحساب في اليوم الآخر الذي قالت به الأديان السماوية، ولا حتى للآلهة أن تكون قدوة صالحة للعمل الصالح، وكل التقوى قرابين وهي للنجاح في هذه الدنيا، وكما كان الإنسان في دنياه يكون في آخرته، أو في عالم الموتى، وثمن التقوى إن حدثت، كله إلى بطون الكهنة، فوجود الكهنة وتعدد الآلهة يستحيل جمعهما مع إيجاد الفعل الخلقي. وإذا كان الفعل الخلقي من جهة أخرى مشروطاً بتجاوز أخلاق الفرصة، التي لا رقيب بشري فيها، أو لسد ما للقانون من ثغرات، فالآلهة أعجز من أن تكون عليمة بخفايا الأمور، بل العكس، فقد تكون ضحايا لمكائد بشرية، وهذا ما نطقت به أغلب الأساطير.

ـ الأسطورة والمنـهج المعرفي:

المنهج المعرفي في الأساطير، يعتمد على مبدأين: الشبيه، والولادة، فمن الشبيه يتم اقتراح سبب التفسير أو الفاعل، ومن الولادة يمكن التعرف إلى أصل الأشياء، وكيف كان مجيئها إلى الوجود، فالشمس أمام النظر تتحرك من المشرق باتجاه المغرب، وبالبحث عن الفاعل كانت الإستعانة بالشبه: فالصقر يطير بجناحيه وقد تظنه واقفاً في كبد السماء، ولهذا جعل المصريون جناحين للشمس لتطير بهما في الفضاء كالصقر، ومن ملاحظة أبو جعل الذي يدحرج البعر " غدا أبو جعل رمزاً لشمس الصباح التي تتحرك على الدوام"[١]، وقد تتحرك الشمس بزورقين تقودهما الآلهة، أو بعربة يقودها سائق، وفي ثون ابن أبولو عند اليونانيين هو سائق عربة الشمس التي تجرها أربعة خيول بيضاء عملاقة:" بيرويس، ايوس، ايثون، فليفون" ولما قتله زيوس لأخطائه الفادحة في القيادة " منذ ذلك اليوم لم يسمح لأحد أن يقود عربة الشمس إلا رب الشمس نفسه "[٢]. أما عن تاريخ الشمس، أو كيف وجدت، فالإله " زيوس " طارد الحورية " ليتو "، فكان أن ولدت له التوأمين: " أريتاميس " القمر، " أبولو " الشمس،

[١] ـ ص ٦٣ ما قبل الفلسفة
[٢] ـ ص ٨٠ ميثولوجيا الأبطال و الآلهة

ولتفسير أشعة الشمس التي تشبه السهام قالت أساطيرهم: أن إله الحدادة " هيفاستيوس "، صنع لأبولو " إله الشمس " قوساً وجعبة لسهام من الذهب لا تنفذ، كما صنع " لأرتيميس " إله القمر قوساً وجعبة لسهام من الفضة لا تنفذ، وبهذا تميزت أشعة الشمس عن أشعة القمر.

ولتفسير درب المجرة أو اللبانة قال البابليون: أنه لما خرج " اللابو " أو " الثعبان العملاق " لخراب الأرض، قتلته آلهة الحياة، فانتثر دمه في السماء، مكوناً درب المجرة "[١]. وفي أسطورة أخرى أغريقية: أن الإلهة " هيرا "، أرضعت هرقل في صغره " ولقوته العظيمة شعرت بألم في ثديها من أثر المص، مما دفعها إلى سحبه من فمه بقوة " فانبثق اللبن في السماء مكوناً المجرة المعروفة بدرب اللبن "[٢]. ولتفسير وجود نجوم الدب في السماء، تقول الأسطورة اليونانية: أنه لما أغوى " زيوس " إحدى حوريات " إرتيميس " وأسمها " كالستو "، غصبت " إرتيميس " فمسختها إلى دبة، وحتى لا تنهشها الكلاب، رفعها زيوس إلى السماء، وجعلها بين النجوم.

[١] - ص ٢١٠ ــ ٢١١ مغامرة العقل الأولى

[٢] - ص ١٦ نفسه

وكثيراً ما أستُخدم الإله المقتول لتفسير وجود الكثير من ظواهر الطبيعة، فالإله " أدونيس " كان صياداً، ولما صرعه خنزير بري، " انبثقت من قطرات دمه المتساقطة على التراب أزهار شقائق النعمان. فمن الشبه بين لون شقائق النعمان والدم، كانت فكرة الإله المقتول، وهكذا تم تعليل وجود شقائق النعمان في الوجود، ومن قطرات دم الإله المقتول " ديونيسيوس " التي تساقطت على الأرض نبتت أو وُجدت أزهار الرمان، وأزهار البنفسج هي الأخرى وُجدت من دماء الإله الروماني " آتيس ", والبطاطا في " هاواي " خرجت من المكان الذي دفن فيه رأس الحكيم " أولو "، وشجرة الموز من المكان الذي دفن فيه قلبه، وشجرة جوز الهند خرجت من رأس " تونا " المقتول، وعند الهنود الحمر، أكواز الذرة وجدت من جسد الإله المقتول.

الإكتشافات والصناعات في الأساطير كلها نسبت للآلهة، فالإلهة " ديمتر " عند الأغريق هي التي اكتشفت زراعة القمح، ثم أمرت " تربتليموس " بنشره في شتى أنحاء الأرض، وتعليم زراعته، وحصاده، وصنع الخبز منه إلى البشر، والإله المصري " أوزيريس " هو الآخر علم الإنسان زراعة القمح وأكل الخبز، والإلهة " عشتار " النساجة هي التي علمت المرأة الحياكة، ولما زعمت " آراختي " كذباً أنها الأمهر،

مسختها عشتار إلى عنكبوت، والإله " ارستيوس " هو الذي علم الإنسان تربية النحل وزراعة الزيتون وصناعة الجبن، والإله " هيفاستوس "، هو إله الحدادة والصناعة، والإله " هرمس " هو الذي صنع القيثارة من أمعاء البقر، والناي من القصب، كما اخترع الأبجدية والموازين وورق اللعب " الكوتشينة " وكل ألعابها، والإله " برومثيوس " جاء بالنار من الشمس للإنسان، ولكن زيوس كبير الآلهة عاقبه على ذلك كما عاقب البشر بالبرغش الذي يزعجهم كلما وجدت النار بين أيديهم، والإله " بوسيدون "، هو الذي وهب الحصان لبني البشر، وأثينا هي التي خلقت الزيتون، وعلمت الإنسان اختراع الفأس والمحراث والنير والعجلة، والشراع. وبالآلهة أيضاً تم تفسير ظواهر الطبيعة، فأمواج البحر عند الإغريق تتولد من ابتلاع ولفظ الماء لدى " كاربيديس " سيدة الدوامات المائية والتي تقبع في أعماق المحيط، والعواصف التي تضرب المحيطات وتغرق السفن، مصدرها ثعبان عملاق أسمه " طيفون "، يسكن العالم الأسفل، والتنين أو الأفعى العملاقة التي تسكن باطن الأرض هي التي تنفث اللهب والحمم من البراكين، وقد كان لون الغراب أبيضاً، ولما غضب عليه الإله " أبولو " لعنه، فصار لون ريشه أسوداً. ولتفسير وجود المخنث بين البشر، تقول الأسطورة: أن إلهة الفرج " سلماسيس " أحبت إله القضيب " هرمس "

فراودته عن نفسها، ولما نهرها طلبت من الآلهة جمعهما معاً بشكل أبدي، وبإجابة الدعاء كان المخنث الأول " هرمافروديت " كمخلوق ثنائي الجنس. ولتفسير وجود الضباب، تقول الأسطورة: أن الإله " أبولو " أهدى " أورنيوس " قيثارة جميلة، عزف عليها أعذب الألحان، فأحبته " يوريدس "، فتزوجها، ولما لدغتها الأفاعي، انطلق إلى العالم الأسفل لإعادتها للحياة، عزف ألحانه أمام " هاديس " إله الموتى، فطرب وفرح، فوافقه على طلبه، بشرط ألا ينظر إلى الخلف عند خروجهما وإلا الموت الأكيد لها، ولكنه نظر خلفه ليرى إن كانت وراءه أم لا، فتبخر جسدها وتلاشى، وبهذا تم تفسير البخار أو الضباب الذي يخرج من باطن الأرض. ولما كان الفعل الجنسي كشرط للإنجاب غير معروف عند قبيلة " الأرونتا " في وسط استراليا، قالت الأسطورة: أن أرواح أو أشباح الموتى الذين ينتمون لنفس الطوطم أو الأصل الواحد، ينتظرون إعادة مولدهم في أمكنة محددة، فإذا مرت النساء بتلك الأماكن دخلوا في أجسادهن، فهذا هو الحمل، وبعض الأساطير نسبت الحمل إلى القمر، " ففي غرينلاد "، يسود الإعتقاد بأن القمر هو الذي ينفخ الحياة في أرحام النساء، لذلك فإن المرأة غير الراغبة في الحمل لا تنام على ظهرها ليلاً دون أن تغطي منطقتها بإحكام خوفاً من تسلل شعاع القمر. وفي " نيجيريا " يقتصر دور الفعل

الجنسي الذي يمارسه الرجل على تسهيل مهمة القمر الذي يعتبر المسؤول الحقيقي عن الحمل، فالقمر هو زوج النساء جميعاً، وهو وحده القادر أحياناً، ودون تدخل الرجل على إخصاب النساء "[1]. وهذا بالطبع مبني على الشبه بين حالات القضيب المتعددة عند الرجل، وحالات القمر. ومرض الطاعون عند البابليين من اختصاص الإله " إيرا"، ومساعده " إيشوم "، فالطاعون سلاح من أسلحته الفتاكة التي يشهرها في وجه الإنسان إن غضب منه أو إن أراد له الفناء، " وفي شمال الهند إذا نزل بقوم وباء رسموا حول المدينة دائرة لكي يمنعوا شياطين المرض من التسلل إلى داخل السور "[2]، و" إيزيس " المصرية، هي التي اكتشفت الأدوية الشافية الأولى. ومن الظن الرابط بين الأفعى والخلود بملاحظة تبدل جلدها بشكل دوري، أصبحت الأفعى رمزاً للطب، وإله الشفاء " ننجزيدا " في سومر، رمز له بأفعوانان متقابلان يلتفان على عصا، و" أسكليبيوس " ابن " أبولو " الذي تعلم الطب من " السنتور " الذي هو مخلوق نصفه حصان ونصفه إنسان، كان أيضاً مديناً ببراعته للأفعى التي علمته أسرار النبات وخصائصه، وبقانون التشابه، تصبح " الزهرة الصفراء، دواء لليرقان، وبذور السرخس التي تدور على العين، صالحة

---

[1] - ص ٨٣ ــ ٨٤ لغز عشتار
[2] - ص ٤٨ المقدس و الدنيوي

بأن تجعل الإنسان خفياً "[1]، حتى عنتر بن شداد كما روي في قصته، بدأ طفولته بأكل قلب الأسد، حتى أصبح متميزاً بقوته وشجاعته الأسطورية "[2].

وبالنتيجة نجد أن المنهج المعرفي في الفكر الأسطوري لا يتجه إلا الظاهرة لدراستها، ولا إلى مجموعة ظواهر لاستخراج قانون ما يسمح بالسيطرة عليها واستخدامها، إنما يتجه إلى تاريخ وجود الظاهرة التي إما عن ولادة بين الآلهة، أو عن إله قتيل، أو عن جزء من أجزاء إله، والسيطرة على الظواهر تكون بالقرابين والطقوس السحرية وإلى ما هنالك، ومن قوانين المعرفة أيضاً في الفكر الأسطوري، قانون التلاؤم بين المتشابهات، والمساواة بين الجزء والكل، والأحلام المعبرة عن إرادة الآلهة. أما التكنلوجيا الناتجة عن هذا المنهج فهي الموجودة فيما يعنيه التنبؤ وسؤال الآلهة عن الخيارات الأفضل أو قل السحر والتنجيم والعرافة.

ملاحظة: لقد تسرب الفكر الأسطوري للأديان السماوية، التي كانت قبل الإسلام، إبان مرحلة الصراع ما بين الجديد والقديم، حتى اختلطت

[1] - ص ٣٧١ علم الفلكور
[2] - ص ١٢٦ أديب الأسطورة عند العرب

عناصره في بنيتها الداخلية: فراحة الإله بعد الخلق، والقديس قاهر التنين، والإله المقتول، وبيت الرب المكاني، والكهانة، وأنبياء التنبؤ، وشمشون الجبار، والمحرقة، والسارية، والحية النحاسية، والهاوية، وليس إلا الإسلام النظري الذي كان له التحرر من كل ما كان قبله من عقائد أسطورية ومنهج معرفي، وهو الوحيد الذي أشار إلى المعرفة كفعل عقلي من خلال الإرتباط الوثيق بين العقل والإدراك الحسي، ومن هذا الإرتباط كان مصطلح التسخير، تسخير الطبيعة أو ظواهرها لصالح الإنسان واستمرار بقائه.

طرائف ومجتهدون: كثيرون هم الذين بحثوا في الأساطير والأنثربولوجيا، ولكن لحسابهم الخاص، لا لعلم بالموضوع ولا لتحليل بنية الأساطير، وما فيها من منهج، فلا تراهم إلا وقد اعتمدوا في أحكامهم على الشبه الذي هو الأس المعرفي في الفكر البدائي: فالآشوريون قديماً اعتبروا " الخنزير " غير مقدس، الخنزير لا يصلح للمعبد، إنه مكروه من كل الآلهة، مثير لاشمئزاز إلهه، ملعون من " شمش "[١]، وفي معبد عين دارة الآرامي، حوض وبئر ماء " وهذا يساعدنا على أن نتمثل العُبَّاد،

[١] - ص ٣٣٩ جذور الأستبداد

وقد اغتسلوا بماء البئر وتوضوا بالحوض، قبل أن يدخلوا حرم الهيكل "[1]، وفي مملكة ماري هناك تماثيل، تبين لنا أنهم كانوا على لحية مع حف الشوارب " فهم لا يتركون شيئاً من الشعر على الشفة العليا "[2]، وفي التماثيل السورية، " تجد خشوع وسكون المتعبد، يرتدون قباء من القماش، يشبه رداء الإحرام عند حجاج المسلمين، يغطي أحد الكتفين ويعقد تحت الكتف الآخر، أما اليدان فمضموتان إلى الصدر بخشوع "[3]. ومن أمثال هذا المنهج وشذراته الكثير الكثير، وبالإيحاء تارة وبالتصريح أخرى، تكون النتيجة: أن الإسلام حرم الخنزير انتحالاً عن الآشوريين، وسن الوضوء عن الآراميين، وإطلاق اللحى وحف الشوارب عن الكنعانيين، ولباس الإحرام ووضعية الصلاة عن السومريين. ولكن الملاحظ برأيي أن البدائية ليست بالعصور، إنما بالتخلف في استخدام العقل، أو هي منهج معرفي لا علاقة له بالفعل العقلي.

ومن الشبه في الأحرف بين " فطر " التي تعني خلق، وعيد الفطر، أصبح عيد الفطر، برأي أحدهم، هو عيد الخلق، " والليلة الأخيرة من رمضان هي ليلة الفطر أو الفطرة، أو الخلق، أو بدء الخليقة "[4]، وهكذا

---

[1] - ص ١٨٦ الآرامية
[2] - ص ٣٨ ماري
[3] - ص ٢١٣ علم الآثار الشرقية
[4] - ص ٢٦٨ تاريخ سورية الحضاري

أصبح عيد الخلق أو تمثيله في الطقوس الأسطورية، هو نفسه عيد الفطر في نهاية رمضان، وقوله تعالى: " **إن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما** "، هو نفسه بزعمه ما تقوله الأساطير عن الهواء أو الإله " شو " الذي فتق السماء عن الأرض، فجزئي الفتق للإلهة هو ما عبرت عنه برأيه الآية، وبالتالي لا خلق من العدم "[1]. وعن تقديس البراكين أو جبال الدخان في الأساطير، يقول: هو المقصود في الآية القرآنية: " **ثم استوى إلى السماء وهي دخان** " وبهذا كانت المساواة بين الجبل أو الدخان والبراكين، فطالما الدخان من البراكين، فالسماء هي البراكين "[2]!!، وعن الربة النساجة عشتار، وطالما النسج صف، فالقرآن قصد عشتار في قوله بـ" الصافات "[3]، وأخيراً ومن خلال الأساطير كان انتصاره للتناسخ، فلا آخرة ولا موازين ولا حساب.

[1] - ص ١٧٥ نفسه
[2] - ص ١٠٢ نفسه
[3] - ص ٢١٧ – ٢١٨ نفسه

ـ الخاتمة:

لم يكن هدفي من هذا البحث، محاكمة الأوائل، ولا أحببت حرب الطواحين، ولكن المسار الحضاري لبني البشر، لا بد يفرض علينا المقارنة وإمعان النظر، على الأقل لقراءة سبل الإصلاح التي قدمها الإسلام للبشرية، من حيث هو دين وحضارة، فالإسلام اعتمد الإنسان موضوعاً لحضارته، فأعطاه كل القيمة، حتى السموات والأرض، لم تكن إلا لاستقبال من نفخ الله فيه من روحه، إلا لاستقبال خليفته تعالى في أرضه، فالإنسان مذ وجد، مذ اجتمع الطين والنفخة الإلهية كان عاقلاً مكرماً معززاً، وعلى قيمة تسمو على كل الأنواع الأخرى، فلا سجود له لمن هو دونه قيمة وكرامة، لا لظواهر الطبيعة من شمس وقمر وإلى ما هنالك، ولا للملوك، ولا لمسميات ما أنزل الله بها من سلطان، فلا سجود وعبادة إلا لله رب السموات والأرض وما فيهن، وبالتوحيد الذي قاله الأنبياء، وبانتصاره على الكهنة، كان مقتل الأساطير، طالما هي مشروطة بتعدد الآلهة.

لقد انتصرت النبوة على الكهانة، فلا كهانة تهدر كرامة الإنسان، وتسخره لنفعها، ولا خوف من الموتى، ولا قطع لرؤوسهم أو إحراقهم، أو دفنهم أشلاء متباعدة، ولا الدار الآخرة بحاجة للخدم والقرابين الأحياء،

ولا تمييز بينهم في مدافنهم، وكل إنسان مسؤول عما فعل في دنياه، ولا نجاة له بالتعاويذ، أمام موازين العدل المطلق.

- المراجع:

١- **القرآن الكريم**

٢- **الكتاب المقدس**

٣- **التنبيه والإشراف:** تأليف علي المسعودي، دار الصاوي. القاهرة

٤- **الأصول الكنعانية للمسيحية:** تأليف فايز مقدسي. طـ١ ١٩٩٦ دمشق

٥- **الآثار الرومانية:** تأليف د.محمد الزين طـ١ ١٩٨١ دمشق

٦- **البدائية:** تحرير آشلي مونتاغو، ترجمة: د.محمد عصفور عـ٥٣ عالم المعرفة

٧- **المدن الأولى:** تأليف فاليري غولاييف، ترجمة طارق معصراني، دار التقدم، موسكو ١٩٨٩

٨- **الخطط المقريزية:**أحمد المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨

٩- **الفصل في الملل والأهواء والنحل:** علي ابن حزم، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٣

١٠- **الإسرائيليات وأثرها في كتب التفسير:** د. رمزي نعناعة، طـ١ ١٩٧٠

١١- **المعتقدات الدينية لدى الشعوب:** جفري بارندر، ترجمة: د. إمام عبد الفتاح عـ١٧٣ عالم المعرفة

١٢- **المقدس والدنيوي:** مرسيا إلياد، ترجمة نهاد خياطة طـ١ ١٩٨٧

١٣- **الديانات السورية القديمة:** ريني دوسو، ترجمة: موسى ديب الخوري، طـ١ ١٩٩٦. دمشق

١٤- **الآثار الكلاسيكية:** د. مفيد رائف العابد، طـ١ ١٩٨١. دمشق

١٥- **المدينة الفاضلة عبر التاريخ:** مارية لويزا برندي، ترجمة د. عطيات أبو سعود، عـ٢٢٥ عالم المعرفة

١٦- **الدولة والأسطورة:** أرنست كاسيرر، ترجمة د. أحمد حمدي محمود، ١٩٧٥ القاهرة

١٧- **الشعوب والبلدان:** مارغريت ميد، ترجمة غادة السمان، مكتبة أطلس، دمشق

١٨- **الأنثربولوجيا الإجتماعية:** د. علي جباوي ١٩٨١، دمشق

١٩- **الحضارة:** د.حسين مؤنس، عـ٢٣٧ عالم المعرفة

٢٠- **المجادلة الحضارية:** عدنان بن ذريل، دمشق ١٩٧٤

٢١- **البداية والنهاية:** ابن كثير، طـ٢ ١٩٩٠، مكتبة المعارف، بيروت

٢٢- **الفكر الشرقي القديم:** جون كولر، ترجمة كامل يوسف حسين عـ١٩٩ عالم المعرفة

٢٣- **العرب والساميون:** د. أحمد داود طـ١ ١٩٩١

٢٤- **الآرامية تاريخاً ولغةً وفناً:** د. علي أبو عساف، دار أماني

٢٥- **آثار الوطن العربي القديم:** د. سلطان محيسن، ١٩٨٨ – ١٩٨٩ دمشق

٢٦- **ألالاخ مملكة منسية:** ليوناردو ولي، ترجمة فهمي الدالاتي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق

٢٧- **أخبار الزمان:** علي المسعودي، دار الأندلس، بيروت طـ٤ ١٩٨٠

٢٨- **أبحاث في الجزيرة العربية:** ماكسيم رودنسن، كريستيان روبان، جيوفاني غاربيني، فرانكو ريتشي، ترجمة د. نجيب غزاوي، طـ١ ١٩٩٦ دمشق

٢٩- **أميرات سوريات حكمن روما:** جيودفري تورتون، ترجمة خالد أسعد عيسى وأحمد غسان سبانو طـ١ ١٩٨٧

٣٠- **أديب الأسطورة عند العرب:** فاروق خورشيد عـ٢٨٤ عالم المعرفة

٣١- **بدائع الزهور:** محمد بن أحمد بن إياس، دمشق دار الكوثر
٣٢- **بلوغ الأرب:** محمود شكري الألوسي البغدادي، دار الكتب العلمية، لبنان
٣٣- **تاريخ العلوم عند العرب:** د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، ١٩٧٧ بيروت
٣٤- **تاريخ سورية الحضاري القديم:** د. أحمد داود، طـ٢ ١٩٩٧
٣٥- **تاريخ الحضارات العام:** آندريه إيمار وجانين أوبايا، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، طـ١ ١٩٦٤ لبنان
٣٦- **تاريخ مختصر الدول:** غرينوريوس الملطي ابن العبري، منابع الثقافة الإسلامية
٣٧- **تاريخ الأمم والملوك:** محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧
٣٨- **تراث الإسلام:** ج١ عـ٢٣٣ عالم المعرفة
٣٩- **تاريخ بلاد الشام القديم:** أحمد علي طـ١ ١٩٩٨
٤٠- **ميثولوجيا الأبطال والآلهة والوحوش:** برنارد أيغلسن، ترجمة حنا عبود، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٩٧
٤١- **معالم حضارات العالم القديم:** د. نعيم فرح، دار الفكر ١٩٧٣

٤٢- **مغامرة العقل الأولى:** فراس السواح ط٧ ١٩٨٧
٤٣- **مجلة عالم الفكر:** ع٣ ١٩٨٤
٤٤- **ملامح من الأسطورة:** ميرسيا إلياد، ترجمة حسين كاسوحة، وزارة الثقافة السورية ١٩٥٥
٤٥- **مختصر صحيح البخاري:** الإمام البخاري
٤٦- **مروج الذهب:** علي المسعودي، دار الأندلس، بيروت ط٤ ١٩٨١
٤٧- **مقدمة ابن خلدون:** دار القلم، بيروت ط٥ ١٩٨٤
٤٨- **مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام:** د. أحمد سليم سعيدان ع١٣١ عالم المعرفة
٤٩- **مجلة الثقافة العالمية:** ع١١
٥٠- **مجلة عالم الفكر:** ع٣ ١٩٨٤
٥١- **مجلة عالم الفكر:** ع٤ ١٩٨٢
٥٢- **ماري:** آندرية بارو، ترجمة د. رباح نفاخ ١٩٨١ – ١٩٨٢ دمشق
٥٣- **مجلة المعرفة السورية:** ع٣٣٣ ١٩٩١

٥٤- **ما قبل الفلسفة:** هـ. فرانك فورت، هـ. افرانكفورت، جون، أ. ولسن توركيلا جاكسو بن، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، بيروت
٥٥- **لسان العرب:** ابن منظور
٥٦- **لغز عشتار:** فراس السواح طـ٢ ١٩٨٦
٥٧- **علم الفلكلور:** ألكزاندر هجرتي كراب، ترجمة رشدي صالح، القاهرة ١٩٦٧
٥٨- **علم الآثار الشرقية:** د. هشام الصفدي ١٩٨١ – ١٩٨٢ دمشق
٥٩- **عصور ما قبل التاريخ:** د. سلطان محيسن ١٩٨٨ – ١٩٨٩ دمشق
٦٠- **علم الآثار القديم:**
٦١- **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات:** زكريا القزويني، تحقيق فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة طـ١ ١٩٧٣
٦٢- **علم التنجيم:** عبود حنافرة طـ١ ٢٠٠٠ دار علاء الدين، دمشق
٦٣- **عرائس المجالس:** أبواسحاق الثعلبي، المكتبة الثقافية، بيروت
٦٤- **عرض إقتصادي تاريخي:** طـ١ دار التقدم، موسكو
٦٥- **قصة الأنثروبولوجيا:** د. حسين فهيم عـ٩٨ عالم المعرفة
٦٦- **كتاب الحيوان:** الجاحظ، دار صعب طـ٣ ١٩٨٢ بيروت

٦٧- **جذور الأستبداد:** د. عبد الغفار مكاوي عـ١٩٢ عالم المعرفة
٦٨- **في السلطة:** برتران دوجو فنيل، ترجمة د. محمد صاصيلة، دمشق ١٩٩٩
٦٩- **حياة الحيوان الكبرى:** كمال الدين الدميري، طـ٢ منشورات الرضى، قم، مطبعة أمير
٧٠- **صبح الأعشى:** أحمد بن علي القلقشندي، طـ١ ١٩٨٧ دار الفكر
٧١- **رسالة ابن فضلان:** أحمد بن فضلان، تحقيق د. سامي الدهام طـ٢ ١٩٧٧
٧٢- **رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا:** دار صادر بيروت
٧٣- **رحلة ابن بطوطة:** تحقيق د. علي الكتاني، مؤسسة الرسالة ١٩٩٨ بيروت
٧٤- **رحلة ابن جبير:** أحمد بن جبير البلنسي، دار الكتاب البناني

- الفهرس: